حكايات عن البحر والولد الفقير

قصص

قاسم مسعد عليوة

دراسة

محمد جبريل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. ناصر الأنصارى

رئيس التحرير
عبد العال الحمامصى

مدير التحرير
حزين عمر

سكرتير التحرير
أحمد توفيق

تصميم الغلاف
محمد عمر

الإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

الإهـــــداء

الى روح أبى ...

الرجل الذى أورثنى حبين :

حـــب البحـــر ،

وحب بسطاء الناس .

قاســم مســعد عليوة

عليوة ، قاسم مسعد .

حكايات عن البحر والولد الفقير: قصص/ قاسم مسعد عليوة: دراسة محمد جبريل. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

١٣٤ ص ؛ ٢٠ سم . ـ (إشراقات جديدة)

تدمك ١ ٥٨٤ ٤١٩ ٩٧٧

١ ـ القصص العربية القصيرة .

(أ) ـ جبريل، محمد (دارس)

(ب) ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٥٤/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 584 - 1

ديوى ٨١٣,٠١

أينمـــــا

ووقتمـــــا

وكيفمـــــا

وليت وجهك شطر البحر

عثرت عـلى حـكاية



يا جمــرة الحب بين الضلوع
اتقـــــدي ٠
اتقـدي يا بـور سعيد ٠



مركب بســـاجيرى

الى روح عم احمد الجنتيرى بائع الأنتيكات الشرقية

كلمتان اثنتـــان فقط ٠٠ ان تحركت بهما شفتان ٠٠ أى شفتين ٠٠ انقلب الحى كله رأساً على عقب ٠ لايهم ان نطق بهما السيد سبرتو ، أو عم زرمبه ، أو الكابتن ســعد نويصر نفسه ٠ ولا يهم ان زيدت عليهما كلمة أو جملة أو حتى جملتين ٠ المهم أن يردد هواء الحى هاتين الكلمتين فليس مطلوباً ســـــواهما ٠ اذا ما انطلقتا انقذف لهما الرجال والغلمان وتدافعوا من أبواب الدكاكين والمخانات ومخارج البيوت ٠ منهم من ينشغل لثوان بدفس قميصه في بنطلونه ، ومنهم من يكبس البلمة فوق رأسه ، ومنهم من لايبال ٠ لكنهم غالبـا ، بل دائمـاً ، ما يتنادون بهما ويزعقون من أســفل التراسينات وعلى رؤوس الحارات :

« مركب بســـاجيرى »
« مركب بساجيرى ياوله »
« مركب بساجيرى يابوص » ٠

وان هى الا لحظات ، فقط لحظات ، يخبون بأحمالهم مهرولين صوب الميناء . يتصادمون وتدوس أقدامهم على الهواء بدلا من بدالات الدراجات فيسقطون وتسقط فوقهم أو أسفل منهم الصوانى وسلال الخوص وتماثيل العاج والكراسى الجملى . يتشـــاتمون ويصرخون ، لكنهم دائماً يمضون مسرعين فنغرق ، أنا وحنفى وعزيز ابن أبله تريزا ، فى الضحك على مناظرهم ولا نخرج من مكامننا الا بعد خروجهم من الحى الى شارع محمد على الفاصل بين حينا وحى الافرنج .

ولأن الميناء تقع شرقى المدينـة ، فمثلهم مثـل عمال الكنال وصيادى النابورطال ، عليهم أن يعبروا حى الافرنج بأكمـــله . ومثلهم لم يكن مسموحا لهم بالعبور الا من شارع الاشكاربية .. يقفون أمام البوابة لدقيقة يبرزون فيها أوراقهم . من لا يملك أوراقاً يمد ذراعه ليلطع العسكرى الانجليزى الختم على ظهر كفه . وكنا من باب التسلية نتبعهم . نتسلل من بين الأجساد والأشياء لنصبح فى قلب الشارع . عند سور الميناء نقف . نرقبهم وهم يخرجون التصاريح والبازابورتات ويحاولون المرور بأجسامهم وبأشيائهم من الأبوئب المزدحمة بحرس السواحل والمخبرين . يبهرنا البمبوطية وهم يسارعون الى فلايكهم يفكونها ويدفعونها بالمجاديف بعيداً عن القزق . الى أى فلوكة يقفز السيد سبرتو بنفسه وبكرنونته التى تتلاطم فيها زجاجات الخمر المغشوش . بالذوق أو بالعافية على صاحب الفلوكة أن يرضخ لوجوده معه . والســـيد سبرتو ليس بمبوطياً ولا يملك رخصته أو تصريحاً ، لكن من يقـدر على منعه ؟

على الرصيف يفرد باعة الأنتيكات حمولاتهم . بالنهـــار يصنعون مظلات من المشمع الفقير ، وبالليل يوقدون الكلوبات . وفى مواجهة الكل ترسو باخرة الركاب شامخة ، نظيفة ، متلألئة ، ومئات الرؤوس تطل علينا من سطحها ونطل عليها . واذ ينصرف عمال

الرباط بلنشاتهم بعد الانتهاء من شدها الى الشمندورات المحيطة ، يفتح باب الباخرة ويظهر السلم فيصعد عليه رجال البوليس والبحرية والحجر الصحى بثيابهم الزاهية · وفيما يجتهد العمال فى ربط البراطيم بعضها بالبعض ويصلونها بباب الباخرة يكون السـيد سبرتو هو أول الواصلين · يقفز بكرتونته من الفلوكة التى أقلته ويصعد السـلم هرولة ، ولما كان العسـاكر يعترضون مروره ، والضابط يشير بكفيه باشارات منع حازمة ، فانه يصرخ « ياواد ياجلجل ·· واد ياجلجل ·· انده الكابتن نويصر ·· قـول له الظابط مش عايزنى اطلع الوابـور » · وبنفس الصوت الجهورى يسترحـم الضابط « خصيمك النبى ، سيبنى أطلع » ، ويـكون البمبوطية قد لحقوا به فيصعد من له تصريح ويظل الآخرون فى فلايكهم ، لتبدأ ألسنتهم الستة فى العمل ، فتتدلى من السطح العالى الحبال لتصعد بأشياء وتهبط بأشياء · وسط هذا الضجيج كنا نرى السيد سبرتو ، الذى أصر الضابط على نزوله ، يقف وسط الفلوكة التى فرض نفسه عليها ملوحاً بالزجاجات المبرشمة يدويا ويجلجل بصوته العريض « جونى ووكر ·· دراى جن » · يؤذينـا منظره فى الوقت الذى نفرح فيه لمرأى صاحبينا عوض مسـعود والسيد البابلى وهما يربطان بمهارة بضائعهما بالحبال ثم يهزونها فيرفعها أبواهما من فوق · مع هذا الفرح نعجب لفرهود والمحمدى كيف أمكنهما فرد الكليم الأسيوطى بين قاربيهما دون أن تطالها مياه القناة ·

وسط كل هذا الضجيج ، لم نكن نعدم من يلوح لنا من فوق السطح فنصيح بكلمات من فرط تكرارها تعودناها ·

« هى ·· هـالو » ·

« ول كـم » ·

« بونجـور » ·

« كاليمـــيرا » ٠

« اريفاديتشى » ٠

« أو ٠٠ انديان » ٠

قد نرتطم أثناء هزرنا ، والهزر دائم فى هذه المواقف ، بأكتاف الحمالين الذين ينتظرون بشاراتهم النحاسية هبوط البساجرية ، وقد تلسعنا ذيول الجياد التى يمشطها عربجية الحناطير فلا نتكلم معهم ولا نضايقهم ، فاغلبهم يعيش معنا فى حينا الفقير ، أو فى حى المناخ الأكثر فقراً ٠ حتى عم زرمبه الذى طالما تريقنا عليه وطاردناه بالعبارة المشهورة « كرباج ورا متعاص ٠٠٠ » كنا نتركه فى مثل هذه الأوقات لأنها أوقات الرزق ، أما الصيارفة الذين يجلسون أمام بنوكهم الصغيرة ذوات الواجهات الزجاجية المرصـــوص بدواخلها أوراق البنكنوت من كل صنف ولون فقد كان غيظنا منهم كبيراً لأنهم يكسـبون الكثير ، ويشـــتموننا وأهلنا يجعلون بيننا وبين البنوك المحشـــوة بالفلوس حـرماً لا نجتـازه أبداً ٠ كراهيتنا لهم لا تعكر أمزجتنا ولا حتى مرأى عساكر الانجليز ببنادقهم وبريهاتهم ووجوههم المدهونة ورنيش مادامت المراكب تروح وتجىء ٠ فكل شىء جميل عرفته حارتنا كان يأتى من معاملاتنا مع هذه المراكب ٠ ولأنها تأتى من البحر ، فالعادة أن نقول من البحر ٠ فان شربت شاياً فى مقهى المعلم جابر ودخل دماغك وسألته عن مصدره أجاب « من البحر » ٠ وان تحسست بوية أدخلت رونقـا على تراكيب عبده فليقل بادرك قبل أن تسأل « من البحـر » ٠ وان رأيت الكابتن سعد نويصر يتبختر بالبنطلون الدنجريه والكاسكتة الاجريجى فمن غير سؤال تعرف أنهما من البحر ٠ وخراطيش السجائر البحارى والبرانيط الرومانى والبلاطى الانجليزى وقزايز الريحة الفرنساوى كلها من البحر ٠ والساعة فى رسغ الست عديلة روسكوف صحيح ، لكن، يكفى أنها جاءت من البحر ٠ حتى حبال الغسيل فى بيت أم عبده ،

والتبتة قدام باب الشيخ رمضان ، وجركن المية فى محل فاروق الجزماتى ٠٠ كلها جات من البحر ٠ وبالنسبة لى شخصياً فان أول صورة فاضحة رأيتها فى حياتى جات أيضاً من البحر ٠ لذا كنا أنا وحنفي وعزيز ابن الأبله تريزا نتحسر على ضياع متعة الاندفاس وسط هذا الهرج والمرج التى حرمنا منها ، فأهالينا ٠٠ وآه من أهالينا ٠٠ خططوا لأن نكون أفنـديات لنـا هيبتنا ، والا فلماذا أدخلونا المدارس وصرفوا علينـا دم قلوبهـم والبسونا النظيف الغالى من الهدوم ؟ ٠

عندما يصبح الزحام على أشده نترك السور الحديدى الى السور الحجرى للممر المؤدى إلى تمثال دى ليسبس الواقف بخيلاء عند مدخل القناة كأنها تكية أهله ٠ نجلس على الحجر ونحدق فى المدن العائمة وفيما يدور من حولها ٠ لا نملك غير التحديق ، ولاينى حنفي يحكى عن المراكب العجب العجاب ، فأبوه يقول ان بكل مركب بيوتاً وبنوكاً ودكاكين وخمارات ٠ وبها أيضاً ملاعب وحمامات سباحة وسينما ٠ « سينما بحق وحقيق يا عزيز ٠٠ فيها شباك يقطعون منه التذاكر بالشيء الفلانى » فنندهش ونضرب كفاً بكف ٠٠ « سينما ؟ ٠٠ سينما يعنى سينما ؟! » ٠٠ فيحلف « أى والله ٠٠ لا ٠٠ وايه ٠٠ النسوان فيها عرايا ملط ؟! » ٠ « آه ٠٠ وأى شيء تتمناه ٠٠ أشر بس يجيلك على طول » ٠

ما استدق على أفهامنا هو تلك الثقوب التى تندفع منها المياه قوية هادرة لتدوم مياه القناة قبل أن تذوب فيها ٠ فى البداية تأففنا « الأغراب بينجسوا ميتنا بصنتهم » ٠ الا أن هذا التأفف لم يكن ليمنعنا من المراهنة على الكيفية التى يتبولون بها عبر هذه الثقوب ٠ عزيز كان يقول بأنهم يجمعونهم عشرات عشرات ويضعون أعضـــاءهم فى الثقوب ويأخذون فى التبول ، فنصرخ أنا وحنفى « عشرات ؟! » ٠ « قل مئات » آلاف يا غشـــيم » ويفتح الله على ويكشف لى السر فأنبرى « الجرادل ٠٠ يعملوها فى الجرادل وبعدين

يدلقوها من الأخرام » فيضحك حنفى « هاها ‧‧ جرادل » ويرعد « اسمعوا ياناس ‧‧ اسمعوا ياخلق ‧‧ الحمال بيقول جرادل » ‧ اكتم صوته « قول انت يانبيه » ، فيقول « الخراطيم ‧‧ بيحشروا فى قضيب كل واحد خرطوم » فينفجر عزيز ويجلجل بضحكة كثيرة التقطع « هىء ‧‧ هىء ‧‧ هىء ‧‧ والنســـوان ياغبى ؟ » ‧ « والنســـوان كمان » ‧ « مش ممكن » ‧ « وايه المانع ؟ » ‧ « بيتعوروا » ‧ « هاهاها » ‧ ويواجهنى « سمعت الفلحوس ؟ ‧‧ فضحنا بجهله » ، ثم أخذ سمت الخبير « نسوان الخواجات حاجة تانية خالص » ‧ ولا ينتهى الأمر بيننا ـ حتى بعد أن عرفنا أنها مياه تبريد الماكينات ـ بغير تبادل الكلمات والشلاليت والتراشق بقوالح الذرة وحبات الترمس والفول السودانى ‧

صاحب النصيب الأوفر من مقذوفاتنـا هو حنفى ، ففى كل مرة نكتشف فيها فشره كان يعتلى حجر السور ويفتح أزرار بنطلونه ويخرج عضوه جهاراً نهـاراً ويلوح به لراكبى المراكب « حاغرقكم ياأنجاس ‧‧ حاغرقكم ياولاد ستين كلب » ‧ من فورنا نصرخ ونغمض أعيننا ونقذفه بما نطوله ، وأحيـاناً ما نسقطه من فوق الحجر الى الممر ، ولأنه الأقوى فالغلبة لاتكون الا له ‧ وبسببها نجرى ويجرى وراءنا بسرواله المفتوح واندفاقة الماء التى تتقدمه ‧

حنفى لم يكن من مدرستنا ، ولا يسكن فى حارتنا ، الا أن صداقة قوية ربطت بيننا وبينه ‧ أحببناه لسمرة وجهه والتماعة أسنانه ، وجرأته التى لا يستعصى معها شىء ‧ وازداد حبنا له بعدما جرى وراء ولد صايع ، من عزبة النحاس ، سرق شنطة عزيز وطار ‧ لكنه لحق به وبضربة شنكل أسقطه وخرشمه حتى بظ منه الدم ، الا أن سحره الذى يفوق كل هذا ، هو حكاياته التى لا تنتهى عن البنات والنسوان وخفاياهن ‧

يوم نبت له شـــعر العـــانة جـاءنا مفاخـراً فأمسكنا به « هاننتفهولك » ‧ « نحرقه ‧‧ الأحسن نحرقه » ، فيضحك ‧‧

يضحك من قلبه « الغيرة أعمتكم ياأولاد الأبالسة » وما أسرع ما يتغلب علينا فنتخلص منه ونجرى ٠

●

لعلنا لم نحب من شوارع حى الافرنج سوى شارع السلطان حسين الموازى للميناء ٠٠ على الأقل لم يكن الصاغ رضوان وعساكر الانجليز يطاردوننا فيه كثيراً ، ففيه الأبواب التى يدخل ويخرج منها البمبوطية والعطشجية والاشكاربية وكل من له علاقة بشغل الميناء والبحر ٠ عند طرفه الجنوبى مرسى معدية بورفؤاد وفلايك البمبوطية ، وفى طرفه الشمالى تمثال الجنود الاستراليين والنيوزلنديين والسلالم الصاعدة الى حجر دى ليسبس ٠ وعبر السور نرى المراكب العابرة الراسية ، وفيه كازينو بالاس والفنار والفتارين المكتظة بالأنتيكات ٠

اعتدنا فى أوقات العصارى المشى بجوار السور الحديدى ٠ أيادينا مدسوسة فى جيوبنا وظهورنا ملقاة الى الخلف وأنوفنا فى العالى ٠ من يرانا يظننا ملوكاً أو أبناء ملوك ٠ بالطرابيش والمنشات نطارد باعة الأنتيكات السائحين والبساجرية ٠ اللطيف الظريف منهم نتركه يلقط عيشه ، أما السمج الذى تنضح تصرفاته بالغلاسة فكنا نعاكسه ، ونحذر البساجرية منه « هيى فورينرز ٠٠ دونت باى انى ثنج فروم هم » ٠ « هى اذ آ روبر » ٠ « يس ٠٠ يس ٠٠ هى اذ آ كليفتى » ٠

ما ان ننطق هذه العبارات القاتلة حتى يتكتل الباعة ، اللطيف منهم والسمج ، ويجرون خلفنا بصناديقهم التى تتقافز فيها أنتيكاتهم ونحن نضحك ونجرى ٠ نصعد حجر دى ليسبس ونفط الى أرض الطابية ومنها نتسلل عبر السلك الشائك قبل أن يرانا العساكر ٠

أحيانا كنا نلوذ بالشوارع الجانبية الممنوع علينا السير فيها لنعبرها الى صلب البلد · وأحيانا نضطر الى القفز من فوق أى سور يقابلنا · فعلناها مع سور الجنينة الملحقة بكازينو بالاس ، ومع سور المحطة العسكرية ، وسور الفنار · فى المحطة العسكرية كدنا نموت فى جلودنا لما رأينا سناكى العساكر فى بطوننا ·

مرات كثيرة تزأبقنا من قاطعى التذاكر وهربنـــا الى المعدية لتأخذنا الى البر الثانى · وقليلة هى المرات التى اعترضتنا فيها دورية العســاكر الانجليز أو أورطة الصــاغ رضوان ، ربما لأن ملابسنا سبور ونظيفة ، وربما لأننا نجيد المراوغة ·

فى فترات الهدوء يحكى لنا عزيز آخر ما وصلت اليه علاقته مع دميانة ، فهى تأتى الى بيت خالها اسطفانوس كل يومين لكى تشاور له ويشاورلها من الشبابيك المتواجهة · هو أيضا يذهب الى كنيســة مارجرجس ليراها قبل وبعد القداس · لما التقت أكفهمــا وتمشيا على البحر رآهما مكرم فانتظر أباها حتى خرج من خمارة بنايوتى وحكى له ما شافه فثار وحبسها لأسبوعين متتالين لم تر فيهما المدرسة أو الشارع · أكثر من هذا ، هبد باب أبله تريزا وحذرها مما سيحدث لعزيز لو حاول أن يمشى مع دميانة مرة أخرى · اغتاظت أبله تريزا ومنعت عن عزيز المصروف وهى تصرخ وتبكى لأن الرب ابتلاها بولد عفش وواطى لم يجد سوى دميانة بنت باسيلى مرمطون بنايوتى اجريجى الكلب ·

قد نتجهم ونحن نسمع آخـر أحداث حكاية عزيز ودميـــانة ، وقد نضحك أو نصرخ ، لكننا أبدا لا ننفصــل عما يدور حولنا · ومزاجنا هو معاكسة الصيارفة · لا نفعـل هذا الا قرب المغربية ، ثلاثتنا نواجههم · بعــد أن تحشى أدراجهم بالدولارات والفرنكات والجنيهات الاسترلينى نواجههم « حظكم » · « طبعا أشفرتم جيوب

البساجرية والسياح » ٠ « هنيالكم يامفاجيج » ٠ ولأن أمزجتهم فى تلك الأوقات تكون عال العال فانهم لا يشتموننا ولا يستعدون علينا العساكر ، وقد يكبر بعضهم فى وجوهنا ويفرد أصابعه الخمسة أو يدعو الله ليخرق عيون الحساد ٠ وأحيانا تنتاب بعضهم نوبة كرم فينقد كل منا مليما أو صلديا ٠ وسواء نلنا شيئا أم لم ننل ، فاننا لم نمل من التريقة عليهم ٠

●

ما أكثر ما تمنينا أنا وعزيز أن نمتلك جرأة حنفى ٠ اذا ما رأى سائحا يضع ذراعه على كتف سائحة ، اقترب منهما مبتسما بشوشا وهمس « البلد اللى مالكش حد فيها امشى وشلح فيها » ٠ يظنان أنه يرحب بهما فيرطنان بامتنان « ثانك يو » ، « ثانك يو فيرى متش » فيضحك ونضحك معه ٠ لكنه أحيانا ما يكون ضاريا معهم فيختطف كاميراتهم اذا ما شرعوا فى تصوير باعة البطاطا أو الشحاذين ٠ ينتزع الفيلم غير آبه باحتجاجاتهم وحركات أياديهم العشوائية ٠ ما أن ينتهى حتى ينظر اليهم ويبصق « ملعون أبوكم » ٠

ذات مرة فوجىء بالصاغ رضوان يقف بشحمه ولحمه فى مواجهته بالضبط فجمد ٠ حاولنا الفرار فاذا بقبضات العساكر فوق أكتافنا ٠ حرك الصاغ رضوان سبابته باتجاه حنفى أن تعـــال لاتهرب ٠ السائحون خلفه والصاغ رضوان أمامه ونحن تحت قبضات العساكر ٠ حاول أن يروغ من بين سائحتين الا أن كف حضرة الصاغ طالته ٠ قبضت على ياقته ورفعته لأعلى فاحولت عيناه وتدلت شفتاه وظهرت أسنانه اللامعة ٠ اكتشف أن الفيـــلم لايزال بيده فالقاه كما لو كان ثعبانا ٠ عندها أوقفه الصاغ رضوان قبالته ومال اليه « برافو ياولد » ثم صرفنا وأخذ يرطن مع السائحين باتجاه لوتومبيله ٠

عجيب مسلك حنفى مع البساجرية والسياح فهو ينظر اليهم نظرته الى التفاح الأحمر الذى لا يدخل حارتنا الا من المراكب ، ومع هذا يعاملهم بجلافة اذا ما حادوا بكاميراتهم الى مظاهر بؤسنا . فى نفس الوقت أدخلنا معارك ، لا أول لها ولا آخر ، مع أولاد البلد الذين يطاردون السائحين والبساجرية أو يحاصرونهم أمام المحلات أو عن نزولهم من الحناطير . « جف مى ون بيستر » و « ون سيجاريت بليز » . ومثلما يظهر طرزان على شاشة سينما الكوزمو كان حنفى يظهر لهم . وبالتبعية نحن الى جنبه أو ورائه . وكنا ننتصر دوما لنلتفت الى السائحين والبساجرية ، وبطريقة مسرحية نعتذر لهم « سورى مدام » . « سورى مستر » . « ول كم .. ول كم » .

●

كيف حدث هذا ؟

هى دقيقة .. بل ثانية .. لا .. هى رمشة .. رمشة فقط .. رمشتها للحظة باتجاه التحف المرصوصة فى فاترينة محلات الصـــياد . ليتنى ما التفت ولا رمشت . ملـــعون أبو التحف والفاترينات . كأنهما كانا ينتظران الرمشـــة الملعونة .. حنفى الفاجومى وعزيز اللخمة .. علقا خلالها .. وخلالها فقط .. فتاتين سبحان من صور ، وأنا واقف كالعبيط أمام فاترينة بها قرد من العاج يضحك على . فم حنفى مفتوح الى آخره ، وعزيز يهرش خده . مغيظا فرشت ابتسامة ترحاب واقتحمت عليهم وقفتهم « هالو » . متباهيا قدم لى حنفى الشقراء الواقفة معه « سنيورينا أيلينا .. ايطاليانا » . استنجدت بذخيرتى من الايطالية فلم أجد شيئا ذا بال . « ايتاليانا .. أها » . وتهته عزيز مقدما فتاته ماهقة البياض « سو .. سو .. سوزانا .. سنيورينا سوزانا » . « بوناسيرا سنيوريتا سوزانا » .

استغرقت الشقراوتان فى ضحكة خواجاتى رقراقة « بونجورنو سينيور . بونجورنو » .

مداريا الاختلاجة التى اعترتنى ضحكت وهتفت « أها .. » ، فيما لكزنى حنفى بكوعه وصر على أسنانه « فضحتنا » ، فهرست قدمه القريبة « الحاجة الحلوة دى عايزين تاخدوها لوحدكم ؟ » . فوجئنا بهما تتابعاننا فعاودنا تعليق الابتسامات العريضة . رفع حنفى صوته « عايزين يتفرجوا على حى العرب » فاسعفنى الله بكلمة « سى » . « وكمان يمكن يشتروا جلاليب وصنادل » . « سى سى » . « وعايزين يتعرفوا على الناس » . « سى سى سى » . نظر الى عزيز كما لو كنت أفعل شيئا معجزا فاشرت برأسى ولويت لســـانى « يالـــلا » .

هموا بالتحرك الا أن سوزانا استوقفتنا « مينيتو .. منيتو » . لحظتها خرجت من محل الصياد ، الذى كنت أقف أمامه ، هيفاء شعرها أســـود وعينـاها زرقاوان . قدمتها سوزانا « مارتا .. سنيوريتا مارتا » . وصاحت مارتا « ايجيتى » . من فورى صحت « سى سى سى » . تبادلن كلمات لم نسمعها . بعدها صرخن لما رأين عربة حنطور « لاكورتزا .. لاكورتزا » فوقعت قلوبنا الى ركبنا وتبادلنا النظر . العربجى سيطلب بريزة بحالها ، وان لم يكن الفلس نحن ، فماذا عساه أن يكون ؟

وثبن اليه وهتفن بنا أن نتحرك ، ولم نتحرك لولا أن عزيزا رأى وجه عم زرمبة فوق الحنطور فصرخ « عم زرمبـة » فانتعشنا وانقذفنا صـاعدين . « ازيك يا عم زرمبـة ؟ » . « انت فين يا عم زرمبة ؟ » . « والله زمان ياعم زرمبة » ، ثم انجعصنا بينهن « على حى العرب يا أسطى » .

لم ينطق الأسطى زرمبة بغير عبارة وحيدة « يا أولاد الايه !! » ·· بعدها طرقع بسوطه فتحرك الحنطور ·

طاف بنا شـوارع أوجيـنا والثلاثينى والتجارى الحميدى وكسرى · واشترين ثلاثة جلابيب ودستتى فوط وشبشبين · كن مبهورات بمناظر التراسينات وروائح محلات العطارة وطريقة بيع وشراء السمك · أعجبن أكثر بأبراج الحمام فوق أسطح البيوت · حتى أن سوزانا أخرجت كاميرا وراحت تصور ما تراه · اقترب حنفى من الأسطى زرمبة : « ودينا حارة الكابتن نويصر الله يخليك » · « ليه ان شاء الله ؟ » · « أصله عامل دورى » ·

زعق الكابتن نويصر بصفارته لما رأى الخواجات الثلاث حال هبوطهن من الحنطور ، فتوقفت المبـاراة ، وهمـدت الطزة فوق الأسفلت ، واستدار الجميع ناحيتنا · أزاح الكاسكيتة مبهورا فبان أثر الجرح العميق الذى تخفيه · كل الحى يعرف أنها شظية أصابته يوم اقتحم مع اثنين من الأفنديات معسكر الجولف وقتلوا من قتلوا من الانجليز · فى نفس الوقت انفتحت لنا فرجة فى صفوف المتفرجين فعبرناها · زعق عم زرمبة « الحساب » فرد عليه حنفى « يوم الحساب » وانغلقت الصفوف من خلفنا لتعود الأقدام للتلاعب بالطزة ويعود الكابتن سعد نويصر الى تحكيم المباراة · هبطت الينا الكراسى من وراء الصفوف فجلسنا ، وفتحت زجاجات الغازوزة فشربنا ، وأصاب فريق حارة أبو دنيا هدفا فصفقنا ، خبطت قدم مرعى قصبة ساق كمال أغا فصرخنـا ، وطاشت شـوطة عن الرؤوف فزمنـا ، ولم يحسب كابتن نويصر فاولا لصالح حارة أبو قورة فاحتججنا · لكن احتجاج فريق أبو قورة ومشجعيه كان أشد ، فقد طارت كراسى وألقيت حجارة ، وأمسك الكل فى خناق الكل ·

واذ نتسلل ، كل واحد منا يسحب فتاته ، اعترضنا السيد سبرتو بزجاجاته وابتســاماته البلهــاء « جــونى ووكر .. دواى جــن » .

●

صاحت ايلينا « لاكوستا .. لاكوستا .. لاميرى » . ما ان سمعها حنفى حتى جرها من يدها وجرى بها صوب شاطىء البحر ونحن خلفهما . بسهولة خلعن ما عليهن فاذا بهن يرتدين المايوهات . جرين أمامنا بلحومهن البيضاء فى لون الحليب فلم نعرف ماذا نفعل . جميعنا بلا مايوهات . قال حنفى « وايه لازمة المايوهات ؟ » وخلعنا نحن أيضا ما علينا . فقط أبقينا على الكلاسين الدبلان ، ثم هجمنا على الماء . رششناه عليهن ورششنه علينا . أمسكنا بهن فتزفلطن . أمسكناهن وحملناهن فوق أكتافنا وخضنا بهن أول وثانى جزيرة وهن يصرخن ويقهقهن بالخواجاتى . لما التف حولنا الأولاد وزاحمونا بعيونهم الجائعة خرجنا . تحت دش المياه الحلوة وقفنا لهن حراسا ثم تمشينا معهن حتى جفت أجسامنا فاستعدنا ملابسنا وحفاة حملنا شنط الجلابيب والايشاربات والشباشب وهرولنا الى شارع كتشنر . نفضنا أرجلنا من الرمل وانتعلنا أحذيتنا ثم سرنا باتجاه الكنال لولا أن استوقفنا سرجنت انجليزى مظهره لا يبشر بخير . هتف « استوب » ثم تكلم بعربية مهشمة « انت بويز ايه جابكم زس اسكوير ؟ » وشخط « فين تصريح ؟ » . اسقط فى أيدينا فنحن أبعد ما نكون عن شارع الاشكاربية . توجه للايطاليات ورقق من لهجتــه « ذيى بيت يو ؟ » فانبرين « نو .. نو .. سولداتو » . كرر « ذيى فريت يو ؟ » . « نو .. نو .. نو .. » .

مع هذا التفت الينا مستعيدا صرامته « جف مى يور بيبرز » . رد حنفى بوضوح « وى هافنت » . « ذن شومى يورز استاميس » .

قالها وقبض على ذراعى ٠ ازاح الكم وقلب كفى وذراعى ثم صاح « يو آر اندر أرست » ٠ عندئذ هجمت عليه الفتيات الثلاث ورحن يضربنه ويصحن بالايطالية صيحات غير مفهومة ، ولما خلعن أحذيتهن، ورفعنها فوق رأسه ، هم بسحب طبنجته ٠ عندئذ وثب عليه حنفى ، وكبس عزيز البيريه فوق عينيه وأذنيه ٠ ضربته أنا شنكل أسقطه فانقذف عليه حنفى وراح يكيل له الضرب ، وعزيز يركله ويشتمه « فنك ٠٠ فنك » ٠ بعدها سحبناه ، والايطاليات من حولنا ، الى مدخل أقرب عمارة وكومناه تحت بير السلم ثم خرجنا الى الشارع برعبنا ولهاثنا ، ولاندرى كيف ظهر عم زرمبة بحنطوره ٠ صرخ فينا « اركبوا ٠٠ اركبوا » فركبنا ٠

ساط حصانه وركض بنا من شارع كتشنر الى شارع أوجينى ٠ اجتاز المستوصف والمدرسة الواصفية ٠ عند التقاء شارعى محمد على والمحروسة كادت تدهمنا الأتومبيلات فماد بنا الحنطور أمام مقهى البسفور وبيت عثمان غندر حتى ظننا أنه سينقلب بنا ٠ البنات صرخن وارتمين فوقنا ثم ضحكن وسوين فساتينهن التى انشلحت ٠ الى شارع دى ليسبس انحدرنا ٠ سبق بنا بغال الترامواى ٠ فوجىء بشـلة من الانجليز على مبعدة فانعطف الى حارة اليهود ٠ حمحم الحصان وصهل وهو يغير اتجاهه ٠ أمام مدرسة البون باستير رفع قائميه الأماميين وحرن ، لكن صرخة من الأسطى زرمبة أعادته للركض فمرت بنا من أمام معبد موشـيه هيل ٠ بدا أننا نتجه الى جنينة الباشا ومبنى المحافظة لكنه انحدر بنا يمينا وبرطع باتجاه الكنال ٠ فجأة كبس الكبوت فوقنا ورمى علينا ملاءة « انجليز ٠٠ اتغطوا واستخبوا » ٠ تمددنا أنا وحنفى وعزيز على الكرسى وتكلفتنـــا بالملاءة ٠ فوقنا جلست الايطاليات ٠ اطمأن فمشى الهوينى فترة هى الدهر ٠ بعدها توقف وسمعنا صوته « هاى جونى » ففهمنا أنها دورية أو نقطة تفتيش أو كمين انجليزى ٠ ازددنا انكماشا تحت

الأرداف الايطـــالية . سمعناه يقول « تورست .. تورست » . احسسنا بأنفاس الانجليز وسمعنا أصوات الايطاليات « بوناسيرا سولداتو » . كدنا ننفجر من الحر والرعب عندما سمعنا بالعربية المكسرة عبارة « فين تصريخ ؟ » . وسقط صمت شديد الضجيج . بعدها احسسنا بالحنطور ينحرف وما لبث صوت عم زرمبة أن جاءنا « خلاص » فنزعنا الملاءة وجلسنا الى جوارهن معرقين مبهورى الأنفاس ليعاود الركض بنا ناحية جنينة فريال وشارع فؤاد الأول ثم انحرف باتجاه بارسيسل وكازينو سبلندد لينزلنا فى المكان الذى التقطنا منه بالضبط .

●

قال عزيز لســـوزانا بالانجليزية التى يعرف بعضها « أى لايك يو » . وقلت لمارتا « توبيللا دونا » . أما حنفى فقد أخذ ايلينا فى حضنه . من فورنا فعلنا مثلما فعل . ويالالمفاجأة قبلننا . الأدهى أنه ما ان يترك الواحد منا فتاته حتى ترتمى فى حضن الآخر وتقبـــله .

لما ازف وقت الفراق ، وأزف بسرعة لم نرغبهـا ، قلنـا لهن « أريفاديتشى » ، فقلن لنا « أريفادتيشى » . وكنا نعلم أننا نضحك على بعض ، وأننا لن نلتقى أبدا .

عند عودتنا فوجئنا بثلة من عساكر الانجليز يتحلقوننا . خمسة أو ستة . بينهم السيرجنت المضروب . هجموا علينا بدباشك البنادق فانشغلنا بحماية رؤوسنا بأذرعنا . زنقونا فى حائط سينما الأولدرادو وكادوا يسحلوننا لولا أن ظهر الصاغ رضوان ، فنفخنا صدورنا وأصلحنا هندامنا ، ومن خلف ظهر حضرة الصاغ تحفزنا لهم بشفاه متورمة ووجوه يشلب منها الدم .

تبادلوا مع حضرة الصاغ كلمات لم نفهمها . تنخفض أصواتهم تارة وترتفع أخرى . لكنهم في كل مرة كانوا يشـــيرون باتجاه السيرجنت المضروب . فجأة أزاحوا الصاغ رضوان وهجموا علينا . حنفي كان الأسرع والأكثر يقظة . ضرب الأقرب اليه في محاشمه ثم صرخ بنا فجرينا . دوت طلقات الرصاص فسقط حنفي . نهض وجرى مترنحا لتصيبه أخرى ويسقط . رفعناه وجرينا به لتمس طلقة أذن عزيز وتطير أخرى أحد أصابعي ، لكننا كنا قد وصلنا الى شـــارع محمد علي حيث كان الرصاص قد جمع أولاد الحي هم وعساكر البوليس فتلقفوننا ، ومن بين أذرعهم التي غطتها دماؤنا لمحنا الســـيد سبرتو وهو يطيح باول زجاجة خمر في أوجـــه العساكر الانجليز ، فيما كانت أعداد من البساجرية تجري هنا وهنـــاك .

ثبت بغريب اللفظ

المخانات = غرز تدخين الحشيش

البلمة = نوع من الطواقى

مركب بساجيرى = باخرة ركاب

بـوص = ريس

صيادو النابورطال = الصيادون على مراكب الصيد الآلية ، وهى تحريف لكلمة نابوليتان نسـبة الى مدينة نابولى الايطـالية ٠

البازابورتات = تصاريح دخول الميناء

القـزق = مكان رسو القوارب واللنشات داخل الميناء ٠

الشـمندورات = عوائم مثبتة بقاع القنـاة تربط اليها البـواخر ٠

البراطيـــم = أجسام معدنية عائمة تربط الى بعضها البعض لتصنع كوبريا يمكن المشى عليه فوق الماء .

الدنجــريه = التســمية الدارجة لبنطلون الجينز بمدينة بورسعيد .

الاشــكاربية = الفحــامون .

أشـفرتم = نظفتم ، بمعنى سرقتم .

الصـــلدى = عملة معدنية توقف تداولها قيمتها مليمان .

صـديق العمـر

تحركت سفنى فى قلب العاصفة · فى المواجهة مادت سفنه · شفاهنا تنفخ وتدوم ، واللعبة تقضى بالاشتباك · من يعرق سفن الآخر هو الفائز · ناورت وسبقت وتفوقت ، لكن سـفن حمـادة إنتصرت ·

ـ انت بتغش · غرقها بصوابعك ·

ـ أنا مش باغش ·· انت مغلوب ·

ـ أنا مش مغـــلوب ·

اندفعت قبضته فى وجهى فدفعت قدمى فى بطنه · شـد شعرى فجززت ذراعه بأسنانى · حاول امســـاكى من قميصى · راوغته فتمزق الجيب · جاءت أمي · دخلت أمه :

ـ عيب ·· انتوا أصحاب ·

ـ عيب ·· انتوا اخـــوات ·

الليـــلة ليلتــه ·

مبكرا اقطع الطريق الى بيته . لتوى اتفقت مع زينب بغدادى والأسطى نعيمة . أداختنى الأسـطى نعيمة وأثقلت رأسى بسبب الأجرة . حمادة له الليلة حفل تحييه زينب بغدادى على سن ورمح والأسطى نعيمة وفرقتها . صاخبا سيكون . بهذا اوصيتهما . فى الصخب أتوارى ، وفيه تخفت أصوات انفجاراتى .

العمال فوق أسوار التراسينات ، يدقون المسامير ويثبتون الأعمدة ، واللمبات حبات كمثرى تتدلى من الأسلاك .

– فين النسر ؟ .. اعملوا نجمة هنا .. وهنا ..

منفردا بنفسى أستند الى الدرابزين . حمادة لا يعرف ما أنا فيه . لايعرف ما أعمله . لو أصابتنى سكتة مخية فشللت مادرى . دفعتنى أمى :

– روح واخدمه بعينك .

عيناى مطفئتان لسجائرك يا حمادة ان أردت . آه لو اضطرب قلبى فمت .. لو ماد بى الدرابزين فهويت .. لو قوض الصاعدون والهابطون أركان البيت فتهدم .. آه .

عمال الفراشة لم يحضروا الكراسى ولا أثر لحمادة .

– فين حمادة يا أم حمادة ؟

– عنـد المزين .

وهل تحتاج يا حمادة الى أصابع المزين ومقصاته ؟ بهزة واحدة ينسدل شعرك الأثيث فوق جبينك ، بأخرى تعيده الى مكانه . باصبعين تصففه ، وبموسى عادية .. جديدة أو مستعملة .. تصبح ذقنك ملساء ناعمة . أما أنا فشعرى هو الشوك بعينه ، وذقنى حفر ومطبات . هبطت لأستعجل محل الفراشة . على رأس السلم دلت أم حمادة دعوتها .

ـ ربنا يفرحنا بيك ٠
فرح حمادة يكفى يا أم حمادة ٠

السماء خواء والقمر يتأرجح بين السطوح ٠ أى لبن أرضعته يا أم حمادة ؟ ٠٠ أية تعاليم سقيتها له ؟ من يجرؤ على تخطيه ؟ ٠٠ مكتوب فى اللوح المحفوظ ومرسوم على جبينه « لا مخلوق يتقدم على حمادة » ٠٠ اذا لعبنا بالبلى هو الفائز ، بنوى المشمش هو الغالب ، بالعقلة والمضراب هو البريمو ، بالطرة هو الضارب ٠٠ لا يا حمادة ٠٠ أنت تغش ٠

ـ أنا مش باغش ٠٠ انت مغلوب ٠
ـ أنا مش مغـــلوب ٠
تندفع اللكمات ويندفع الناس ٠

متخاصرين نمشى باتجاه البحر أو البحيرة نصطاد الحناجل بالأسياخ ونجمع البكلويز ٠ حناجله أكبر وأكثر من حناجلى ٠ يتباهى بأكل البكلويز نيئة ولا أقدر على مجاراته ٠ ندخل ميدان المعارك وننافس حارتى أبـو قورة وأبو دنيا ٠ نجاهد لأن نجعل لحارتنا اسما يطاولهما فنجمع الشوم والطوب وزجاجات الغازوزة والسـيوف التى صـنعناها من جريد الأقفاص ونغير على الحارات المجـــاورة ٠

وربما ذهبنا الى « المزرعة » ، وربما الى « حجر سبس » ٠ فى المزرعة نصطاد الثعابين ، وعند « سبس » نجتهد لايصال بصقاتنا الى جسم التمثال ٠ نســتدير الى القناة ونرمى الحصى على أسراب « أبو منقار » و « البطاحيش » ٠ تهز زعانفها ثم تمرق فيقفز هو خلفها ولا أسـتطيع ٠

ـ الكراسى ما وصلتش يا حاج ٠

ـ حالا حا توصل ٠٠ اتفضل قهوة ٠

الى الحلوانى أتوجه ٠ للحجز قطعت هذه الشوارع بالأمس ٠ لم تعد هى الشوارع التى قلبناها وحولنا عيالها الى أرانب ٠

هو الزعيم بلا منازع وأنا وزيره ٠ قبيل الفجر نتسلل من بيوتنا ، أنا وهو والعيال ، ونجرى وراء الخنازير ٠ نطاردها بالكيزان والحجارة ونهتف « أوتسى ٠٠ أوتسى » ٠ ندلق على ما نطوله منها الجاز الذى سرقناه من بيوتنا ، وبكعوب الزجاجات المكسورة نحدث شرطات صغيرة فى جلودها فتتسع وتكبر وتظهر دهونها من تحتها ٠ دائما تلاحقنا قبضات أيوب وأرمانيوس اللاهثين وراءها ووراءنا ٠

فى الأوقات التى يهدأ فيها الكر والفر قد يحدث أن تنزو الحلاليف فوق الخنزيرة التى تقف مستسلمة ٠ يصعد الحلوف ثم يهبط ليصعد آخر ٠ تحدانى أن أمسك بواحد واركبه ٠ عندما هممت بالتحرك هشها والقى عليها الحجارة فهيجها وصعب مهمتى ، لكننى أمســكت برقبة حلوف وأسقطته ٠ نهض وداسنى بأقدامه وهم بالجرى ، فامسكت بذيله القصير ٠ ركلنى بساقيه الخلفيين فتحاملت ووثبت على ظهره ، الا أنه ماد وأسقطنى ٠ نهضت مرة أخــرى وقبضت على ذيله حتى لا يسخر حمادة منى ، فما كان منه الا أنه صاح بعلو صوته :

ـ أوتسى ٠٠ أوتسى

وتركنى مثخنا فوق حجارة الحارة البازلتية ٠

نصنع الكب ونقف مشرق ومغرب كل شمس خريفية عند ناصية الحارة لنصطاد السمان والمليح ٠ نزرع أغصان الشــجر

المنتزعة فوق الأسطح وندهنها بالمخيط لنصطاد العصافير ونذبحها بريشها . نذهب الى البحيرة ونلبد لنصطاد البثير والخضير والغر بالعصافير وبنادق الرش «نكرين» دوبار طائرات الغاب التى نسقطها ونخطفها من عيال الحارات المجاورة فى نهارات الصيف . وفى كل مرة يأخذ نصيب الأسد الجوعان ، ولا يترك لى سوى الفتات .

ـ انده للسقا وخليه يرش المية يا عم محمود .

ـ من عينى الجوز يا أستاذ .

لم تكف مياه الأزيار لاطفاء النـار التى أشـعلناها ذات شم للنسيم . وجهنا اليها خرطوم مقهى الداودى فلم تنطفىء ولم تقصر ألسنتها التى استطالت حتى تجاوزت تراسينات البيوت . ليلتها هجم البوليس علينا وكاد يسقط داخلها ، لما أطبق عليه العساكر ، لكننى خطفته من قلب النار وجريت به . احتضنته لأطفىء قميصه الوالع وقعدنا نضحك .

قلت لـه :

ـ كان ناقص نزفك ونقول يا ألبنى يا ابن النبوحة .

من فوره صعد شخرة مزعجة وصاح بى .

ـ جرى ايه ياروح أمك ؟ ..

ولما شرخت قطعة الزجاج كعبى ونحن نجرى من الأسطى حسين الحلاق بعدما كسر مراياته ، تركنى لعلقة كادت تكسر ظهرى .

ـ عقبال أنجالك يا أسطى حسين .

ـ الله يخليك يا سيدنا الأفندى .

نازعتنى الى عرشه نفسى . جاهرت بزعامتى لعيل أو عيلين فحرض الآخرين فضربونى ، وهيج الكلاب فطاردتنى .

يوم أفلحت فى الامساك بقنديلين من قناديل البحر دون أن يلسعانني ، خطف واحدا وأمسك به من خوذته ومارس مزاحه السمج وراح يضربنى بشراشيبه التى لسعتنى حتى أحرقت جلدى ٠

تحديته أن يصعد الفنار فصعده ٠ أكثر من هذا تشعبط فى السارى الملاصق للشمعة وألقى علينا قراطيس الرمل التى حشى بها عبه ، فنصـــبه العيال زعيما للمربع كله وعزلونى الى بيدق من بيادقه ٠

فى البعيد تتلألأ أنوار المحل ، ومن بعيد رأيته يلعب النشان ٠ على صدر امرأة التابلوة نشن ٠ دائما هو الفائز ٠ يقصف رأس عود الكبريت ويفرقع البومب ويغرز طلقة الرش فى ننى المرأة أو سرتها ٠ يكركر فى كل مرة ٠ ينظر الى بطرفى عينيه الملغومتين ويلوك الملبن الذى يكسبه ، أو يجرش الملبس ويتركنى لأظافرى أقضمها ٠

ـ الجاتوه جاهز ؟

ـ كـــله ٠

ـ طيب بسرعة وحياتك ٠

●

حمادة ، هذا المقروض ، لايترك لى فرصة ٠ ببرتقالة خطف البت سعدية ، وباصبع موز استدرج عطيات اليازجى لتلعب معه « بيوت » فى الصـــندرة المهجورة ففضـــحها وجرى بلباسها فى الشوارع ٠ فى واحدة من هبات الزعامة انتقل الى السالحات ٠ يرفع جيبات الهابطات من البواخر ويجرى ٠ وبالقرب من الحناطير أصبح يقف ٠ ينتظر الجميلة منهن حتى تأتى ٠ يضحك لها ويشاور فيما نكتم بجوار عمارة البساجرية أنفاسنا ٠ لم يحدث أن تراجع ٠ ما أن

تهم صاحبة الجيبة بالصعود الى الحنطور مبتسمة أو غير مبتسمة حتى يكون قد دس رأسه بين ساقيها • فى ثانية يرفعها ويفتح عينيه • تصرخ فينزع رأسه ويجرى وتكون جيبتها قد شلحت فيظهر لنا ما يظهر •

كل الكمائن يفر منها تاركا من يســـقط لكرابيج العربجية وشلاليت العساكر • أنا أيضا سقطت ونابنى من العساكر ما نابنى • بعدما أخرجنى أبى من الحجز أعلنت عليه حربا أقامت الدنيا ولم تقعدها • جمعت عيالى وجمع عياله وتحاربنا • لم يوقفنا الا اختفاء السياح وأزيز طائرات الحرب الحقيقية التى هزت بيوت حارتنا وبيوت البلد كلها •

ـ معاك فلوس ؟

ـ لا ••

ـ ضرورى نلاقى جنيه •

ـ ليـــــه ؟

ـ هات الأول ستين قرش •• أنا معايا أربعين •

ـ وأنا مش ها أجيب فلوس الا اذا قلت لى ليه •

متبرما رسم فى الهواء امرأة فاتنة وأعقب :

ـ حاجة ايه •• تهوس •

الى البيت طرت • أفرغت الحصالة وفتحت الدولاب • تأنقت وقفزت السلم فاذا به يبزنى أناقة وشياكة • النمس حدد شاربه وتعمد ترك شـعيرات ذقنه • فعل بها مالا أعرفه ، فلا هى محلوقة ولا هى متروكة • فبدا أكبر منى أنا المولود قبله بشهرين •

مررت على رئيس فرقة حسب الله :

– اوعى تنسى ·· ميعادنا الليلة ·

دس الستين قرشا فى جيبه ودفع بسيجارة الى :

– ما أنت عارف ، مابدخنش ·

– علشان تسد وتبقى راجل ·

واشترى علبة سجائر كبيرة ابتلعت عشرين قرشا · هممت بالاحتجاج فأمسك برأسى ·

– ندفع لها خمسة وسبعين قرش بس · هيه ملكة جمـــال يعنى ؟! ·

وفتح العـلبة :

– عفر ياعيل ·

من أول نفس لعنته ورميتها ، فأعاد التقاطها ودسها فى فمى · تأملنى وأنا أكح وانشال وانحط · وغرق فى ضحك تخلخلت له ركبتـــاه ·

اعترضتنا حلقة ضمت فرقصنا مع الصحبجية · أنا بالمنديل وهو بالعصا · درنا ولففنا وتثنينا ، ونسينا أحقادنا · صفقوا لنا ففرحت ، الا أنه بالحركات التى أتى بها بعد انتهاء الرقصة أصابهم بالجنون فاستعادوه وعاودوا العزف · أخذتهم الحمى فحملوه ليرقص فوق أعناقهم ، وهو مستمرىء وهم مهووسون · بامكانى أن أفعل مثله الا أنه سبق فأكل النبق · تعبوا وتخلخلت ركب كثيرة ، لكنهم ما توقفوا ، وهو ما سقط ·

أمام عشة من الصفيح والكرتون أوقفنى · نفخ صدره وأخرج من سترته شيئا · حركه ودسه بعود كبريت فى سيجارته ·

ـ يخرب بيتك ٠٠ أفيون ؟!

ـ هس أحسن سيمعونا ٠

ثم دسها في فمي وأشعل لي فدارت بي الدنيا ، ولم أشعر بغير كفه يربت بها على ظهري ويشد بها قوامي ٠ طرق الباب قدهمتني عيناه الملغومتان ٠ عادته عندما ندخل في منافسة ٠ برزت لنا ٠ لدنة وخبيرة وفي يدها مسرجة ٠ فحصتنا « من ساسنا لراسنا » ثم انفسحت ٠ تقدمني حمادة ومشت هي خلفنا ٠ الرطوبة والعتمة ارعدتاني ٠ أزاحت ستارا عن فجوة بها حصيرة وزير وشيش مغلق وشيء من الخرق ٠ قالت :

ـ حاتدفعوا كام ؟

اختنقت بالدخان والكلمات المحتبسة فيما دارت بي الفجوة ورقص الزير وارجع وهج المسرجة كل شيء ٠ بجرأة نطق :

ـ الدفع بعد التسليم ٠

شخرت ٠ نعم شخرت ٠٠ شخرت وامســـكت بحمادة من ياقته ٠ المسرجة بيد ورقبته بالأخرى ٠

ـ تسليم ايه يا سي عمر ؟

تململ ثم تعملق وقلد الكبار ٠ أخرج محفظته ودس يده في جيبي وأخرج محفظتي ٠

ـ فلوســـنا جاهزة ٠

تركت رقبته فألقى بهمـــا فوق غطاء الزير ٠ عندئذ خلعت وارتمت فوق الحصير ٠ هممت بالتقدم ، لكنه دفعني فسقط صفيح وكرتون العـــالم كله فوقي ٠ في الطريق عايرني بالمعيلة والدماغ

الخفيفة ، فيما راحت الكيزان التي شيعتنا بها المرأة تقعقع فوق الأسفلت وشتائمها تسبقنا وتعرقلنا .

●

على الآن أن أحمـل فرحك يا حمادة على كتفي . كتفي الذى شلتك عليه يوم أصابتك قنابل الجوافة . شلتك وجريت بك الى المستشفى الأميرى . عشرون شـارعا أو يزيد . تقطع صـدرى والطائرات من فوق والشراك الخداعية من تحت والقنـابل توزع بذورها بين الناس والبيوت التى هرستها دانات الألف رطل .

فى أى مكان من جسمي تعيش يا حمادة لأبتره ؟ .. فى أى ركن من مخي تعشش لأستأصله . لو كنت فى دمى لاستبدلته . لو سكنت خلاياى لمزقتها . اخرج منى . اخرج وأرحنى .

انتهى عمال الكهرباء من مد الأسلاك وعمال الفراشة يوزعون الكراسى على الحجرات .

- هات الكرسى ده هنا .. حط ده هناك .. حاسب النجفة .. صلح الكوشة .. حط بوكيه الورد ده عند المدخل .

- ربنا يخليك لشبابك يا بنى .

شبابى مات مقتولا يا أم حمادة وجنازته الليلة . أنت يا أم حمادة تعرفين حمادة . تذكرين يوم جئتك أفتن عليه لأنه سرق من تفغيصه وداد العمشة علبة الصسلية . تذكرين يوم رش الرمل على صينية « الملاويء » . يومها كذبتنى وقلت اننى أغار من حمادة لأنه حمادة . لكنك رأيته وهو يقلب الخلول ويشوط فيها برجليه ويدور ويلف ويضحك على عم رضوان الغلبان . وأنت بنفسك شخطت

فيه لما علمت أنه خطف سمكة الحداية الحية من مشنة عبد العال السماك وقطع ذيلها وعمل منه كرباجا يضرب به العيال . العيال الذين جاءوك وحكوا لك كيف لطش صندوق عباس البمبوطي ووقف أمام قهوة البرابرة يبيع ما فيه للخواجات . يومها قلت انني أنا الذى أفسدته ، وصرخت فى أن أبتعد عن طريقه . لكنه صديق العمر يا أم حمادة ، فلا نحن ابتعدنا ولا الطريق انقطع .

ـ العريس غاب قوى يا حبايب .

ـ راح عند العروسة يا حبيبتى .

آخر ما فزت به يا حمادة .

ـ حاتجـــوز حمـــادة ..

ـ بتحبيه يا منـــال ؟

احمـــر وجههـــا :

ـ عمرى عشرين ســنة .

ترانيم الأسى القديم تصطخب فى مسامى . من ضروريات سن العشرين أن تقعى فى الحب يا منال ولى المكابدة . جاء صبى الحلوانى حاملا صاجات الجاتوه .

ـ دول ربعماية حتة بس .

ـ مش معقــول ..

ـ عـــد .

ـ كلامك مضبوط يا أستاذ .. حالا حا اجيب الباقى .

ـ هاتهم من النوع المحشى بالشيكولاته .

منال تحب الشيكولاته . من العجيب أن تحب حمادة . بمصروفى اشتريتها لها . من بيتنا سرقتها لها . وهى تأخذ ولا تقول

شيئا . لا تفعل شيئا . فقط تبتسم . وربما ضحكت أو هللت . بفرح ربما ، وربما بدلال . لكنها لم تخصنى بشيء تقوله أو بفعل يباغتنى . حمادة لا يأتيها بغير الدوم فتضربه به ، أو بالملبس فترميه فى وجهه . وأنا الذائب فى فمها هياما تنسانى ولا تلتفت لى . أكان من الضرورى يا منال أن تبلغى سن العشرين ؟ .

- بتحبيــــه ؟
- عمرى عشرين سنة .

أى غور سحيق أقف على شافته ؟ .. أية هاوية ؟

ليتنى أستطيع الافصاح عما بنفسى . ليتنى أستطيع كشف خباياه . لو صـــاحبت شخصا غير حمادة .. عشرة أشخاص غير حمادة .. لكانت المصيبة أهون .. لكنه حمادة .. الهزيل الأعجف المقروض صاحب قصة الشعر الأثيثة . أخرج يا حمادة من جسمى . أخرج من تفكيرى . أخرج وأرحنى .

زعقت موسيقات حسب الله فزعقت .

- ولعوا النـــور .

اشـــتعل المنزل والشــــارع بالأنوار ومن الشـــقوق انفجرت الزغـــاريد .

- مبروك يا حبايب .
- نتعب لكم كده فى الأفراح .

لو أستطيع البكاء .. لو أستطيع الهرب .

- يا أم حمادة ..
- نعـــم يابنى ؟

ـ أنا رايح أجيب المأذون ٠

ليته كان التربى ٠ تصالبت حتى لا تكشفنى دموعى ٠ الملح مر وعلقم يا حمادة ٠

متقوسا فوق همومى رجعت ، المأذون من خلفى ومن حولى الوجوه والأصباغ ودندشات الدانتيلا ٠ احلمن يا بنات بعريس مثل حمادة ٠ تحسرن لأن منال سبقتكن اليه ٠ تهمسن بأنها نجحت فى اصطياده ؟ ٠٠ لا ٠٠ هو الذى اقتنصها ٠ علم ما بى فسبقنى اليهـــا ٠

ـ أين العـــريس ؟

قالها المأذون فظهر حمادة ٠٠ لا ٠٠ بزغ ٠٠ شعره المنسدل فوق جبينه يلمع ٠ من عينيه تبظ الفرحة ، ومن ذقنه الملساء يشيع الرضا ، فاذا بالعجفة رشاقة والهزال نضارة ٠ فتح السترة وجلس قبالة الحاج حسنى ٠ خدعك يا حاج كما خدع ابنتك ٠ دع كفه ٠ لا تصافحها ٠ قل له ابعد ٠ قل له كشفناك ٠ منال رفضتك ٠ ابعد ، لا نريدك ٠ لكنك فرح ٠ فى فرحك نزق ٠ ليس كنزا ما وقعتم عليه ٠ انه حمادة ٠ حمادة الذى أعرفه ولا تعرفه ٠ أنتم تتآمرون على منال ٠ تتآمرون على الكنز الحقيقى ٠ هى مأخوذة وأنا بخورى اتواطأ ٠ المأذون يتمتم ويرتل ويلقن ٠ لكأنه المؤاجر ينهى مراسم وفاتى ٠ « زوجتى ابنتك ٠٠ البكر ٠٠ منال ٠٠ على سنة الله ورسوله ٠٠ وعلى الصداق ٠٠ » ٠ « سيأتيك ملكان يسألانك ٠٠ من ربك ؟ ٠٠ ما دينك ؟ ٠٠ ومن نبيك ؟ ٠٠ فقل ٠٠ » ٠ هتف المأذون :

ـ أين الشـــــهود ؟

ناولته بطاقتى فأعطانى اقرار القبول · مضيت والشـــاهد الثانى اليها · من هو ؟ ·· لا أعرف ·· لا اريد أن أعرف · فى خدرها تجلس · صويحباتها من حولها · جوهرة ملضومة بدر · بريقها يعشى ، وأنا المطعون بقلبه أتقدم · منال أيتها البريئة أفيقى · انظرى الى أى فخ تمضين · لا تمسكى القلم وارفعى عينيك الى · حتما ستفهمين أى شرك أسلمت نفسك له · لكنها بخفر وقعت ، وبخفر أعادت الورقة · ضوءها يكاد يشعل الطرحة فلألملم جراحى اذن وأعود ·

طرقعت الصاجات ودوت الدفوف والى الكوشة سار حمادة متباهيا · منال متعلقة بذراعه · صوت زينب بغدادى يلعلع فى الصالة ، وكهرباء الأسطى نعيمة تنبعث من بطنها المهتز فترعش الحاضرين ·

قالت جينفر أنا أحب الأفريكان · ست ساعات ستقضيها بين شوارع المدينة · قالت طف بى واشرح لى · فطفت وشرحت · لما تعبت وقالت نســـتريح ، وددت لو أخذتها الى كازينو بالاس ، الا أن تحرشات البحارة وارتفاع أسعاره منعانى · فيه يمكننى مراقصتها على أنغام الباند الناعمة · الى بار اسبلندد أخذتها · الموسيقى فيه صاخبة والراقصون مجانين · طلبت كأسين رخيصين فاذا بحمادة يهبط علينا · أى شيطان مهلك أرسل بك الينا ؟ ·· أى فعلة شنيعة تدبر لها ؟ ·· لى ·· لها ولى ·· عيناه تبرقان بنفس البريق الذى تعودته · كاظما غيظى هتفت به « ابعد » ، لكنه لم يبعد · من تحت أسنانى قلت له « غر » ، لكنه لم يغر · فعلها وابتسم ، ثم راح يرطن بالانجليزية والفرنسية وحكى لها عن أشياء لا أعرفها فتعلقت بذراعه وقالت أورفوار ·

ــ حاتجوز حمادة ٠

ــ بتحبيه ؟

ــ عمرى عشرين سنة ٠

في لحظة ، ربما فى أقل من الومضة انهدمت حيطان التوجس وماجت أبراج الاحتراز فالتقت أعيننا ٠ ثلاثتنا سهت بنا مشاغلنا فالتقت أعيننا ٠ ظفره وخوفى وفرحتها ٠ نحوله ودمامتى ورقتها ٠ اختلطت الأنوار والألوان والوجوه الملطخة ٠ غبـار أو ما يشـبهه يختلط بالحرارة المنبعثة من زحام الأجســاد ٠ وجه واحد ظل واضـحا ٠ قمر يأبى الا أن يظل بازغا ٠ عينان فرحتان نزقتان لا تعرفان الى أى مذبح تهطعان ٠ أفيقى يا منال ٠ لكن حبك الطفلى يلهيك ٠

لو مادت بى الأرض ، لو انطبق على السقف ٠ لو تبخرت وصرت شعاعا ٠ فلأهرب ٠ أذهب الى حيث لا يعلم أحد ٠٠ حيث لا يجدنى أحد ٠ لا ٠٠ هروبى قد يؤول يا منـالا ٠ أى شىء نظيع عساهم يتقولون به علينا أيتها البراءة المجسدة ؟ ٠٠ فلأحترز ٠

اجتزت زحام الصالة وزحام الغرفة ٠ هو فى ثوبه الأسود ، وهى فى ثوبها الأبيض ٠ كأنما يستعجلون تكفينك ٠ يزغردون أم يصرخون ؟ ٠٠ يضحكون أم يجأرون بالصراخ ؟ ٠٠ أيها الجمال اللاهى بسنينه العشرين تيقظ ٠ اتـرك الكل واجر ٠ اخلع كفنك واجر ٠ لكنهم سمروك الى الكوشة وعلقوك بذراع هذا الحمــادة ٠ أضحكوك فضحكت ٠ منوك بالزيف فاستمرأت ٠ افرح يا صديق العمر ٠ عينال دائمـا ملغومتان ٠ يداك دائما سباقتان ٠ تأخذان ولا تعتذران ٠ آه يايدى المغلولة ٠٠ آه يا همتى الخائرة ٠ مددت يدى اليها فدفعت بكفها الى ٠ أيتها الكف الرخصة ٠٠ كم تعابثنا

فى براءة ٠٠ كم تشابكنا لأغراض غير تلك التى دبر لها حمادة ٠
تلعثمت :

ـ م ٠٠ مبروك ٠

تمتمت ٠ بأى شىء تتمتمين يا منال ؟ ٠٠ لعلك لم تقولى شيئا ٠ لعلك قلت الكثير ٠ افهمينى فالغباء على حط ، والألم سكاكين تحز شراييني وأعصابى ٠

قال حمادة :

ـ عقبالك ٠

من عينيه تقفز نظرة الظفر ٠

ـ فى حياتك ٠

كعادتك نجحت يا حمادة ٠ براءة العمر الغائب راحت اذن يا منال ٠ بودى لو اقتلك يا حمادة ٠٠ لو أخطفك يا منال ٠

ـ هاتى الجاتوه يا أم حمادة ٠

ناولتنى الصينية فرحت أوزع الأطبـاق والابتسامات ٠٠ لا أصدق أننى أملك طواعية القدرة على الابتسام ٠ أبتسم وأتلقى التهانى خناجر تطعن فى كل مكان من جسمى ٠

ـ مبروك ٠

ـ عقبالك ٠

ـ ربنا يحفظم لبعض ٠

ـ مبروك ٠

ـ عقبالك ٠

ـ ربنا يحفظكم لبعض ٠

ثبت بغريب اللفظ

الحناجل ـ الكابوريا أو سراطين البحر ·

البكلويز ـ نوع من المحار يؤكل ·

البطاحيش ـ الأسماك الصغيرة ·

الكـب ـ مصيدة مصنوعة من شبك وغاب ·

المخيط ـ مادة مخاطية شديدة اللزوجة تستخدم لصيد الطيور ·

نكرين ـ نسرق فيما يشبه الخطف ·

التراسينات ـ الشرفات ·

يا البنى يا ابن النبوحه ـ عبارة مقتطعة من الأغنية المصاحبة لطقس حرق دمية اللورد اللنبى كل شم للنسيم فى مدينة بورسعيد وغيرها من مدن منطقة قناة السويس ·

حكايات عن البحر والولد الفقير

الى ليونارد پيشوب

- ١ -

دأبت ورفاق الحارة على الذهاب الى البحـر هرولة ومشـيا وحجلا وزحفـا ، لنلهو ونلعب ونسبح ونغطس ونجمع المحـارات ونعاكس كل من يجعل من الشاطىء مكانا للقاءاته الغرامية · غير أن اكتئابه مثل غمامات البحر كانت تعلونا عنـدما نبدأ في خلع ثيابنا ، لعلمنا أن البعض منا لا يأتي البحر حبا فيه ، وانما استجابة لأوامر والديه ليغتسـل تحت أي من الأدشـاش التي تتناثر على الشاطىء وتصب على أجسامنا مياها حلوة ويوفر جرة ماء ·

- ٢ -

ما ان يظهر عم حسـن وتعلو في الحـارة جلبـة العجلتين الخشبيتين المحمول فوقهما البرميل المطلي بالأحمر ، بفتحته المربعة ،

وصنبوره النحاسى ، حتى تبدأ طرقعات الشبابيك فى التواتر ، وتظهر نسوة الحارة منفوشات الشعر مرخيات الوجوه ، ويأخذن فى مناداته متكاســـلات متثائبات وهن يفركن العماص الملتصق برموشهن وزوايا أعينهن ويهرشن رؤوسهن وما تحت أباطهن ·

– هات جرة مية يا عم حسن ·
– هات جرتين يعمر بيتك ·
– شهل يا مكحكح ·· العيال صحوا ·

يصعد عم حسن السلالم الخشبية ، هو أو صبيته الذين يعرفون طرقهم الى الأزيار منزوعة الأغطية ، ويعرفون الدرجات المكسورة ، والألواح التى نخرها السوس · يفرغون ما بجرارهم ويتلقون عن كل جره قرشـا · ولأنه كان للقرش قيمة ، فكن ينغصن على حامل الجرة يومه بكلمات من نوع « المية عكرة ·· هل تنزح لنا من البحر ؟ » ·

- ٣ -

احببت كل ما يعطونيه فى المدرســة ·· الحساب والعلوم وقواعد اللغة وفطير المعونة ·

وأحببت مدرسة الفصل ، فهى سمينة ، لها صدر وردفان ورقبة عريضـــة ، وتعطينى درجـات تجعلنى الأول مكرر · لكنها لا تكف عن القول بأنه يمكننى أن أكون الأول لو حافظت على نظافة كراساتى ، وأن كراساتى لن تكون نظيفة بغير أن تكون يدى نظيفة ، وأن الدليل على عدم اعتنائى بنظافة يدى ، هذا الاتساخ المريع لأظافرى · لذا ، دأبت كل صـــــباح على الاستيقاظ مبكرا والذهاب الى البحر لأحك يدى وأظافرى بالرمل والأصداف والماء

المملح . ولم يحدث أن أفلحت يوما فى تنظيفها ، فما كان لرمال وأصداف البحر كلها أن تزيل أوساخ محل الفحومات الذى أعمل فيه بعد الظهر .

- ٤ -

انكمش تلاميذ الفصل من البرد وراحوا يتابعون اصطدام الريح بزجاج النوافذ وتأرجح الكافورة فى الخارج ، أما أنا فقد تعمدت لصق وجهى بزجاج نافذتى ، وتشاغلت عن كل شىء بتملى وجه عفاف المؤطر بزجاج نافذة الفصل المواجه . وعفاف ناعمة كالزبدة . خدها خوخة ، وفمها نبقة ، ونهداها قمعان من أقماع السكر الجلاب . وهى فوق هذا ابنة حارتى .. الشىء الأبيض الوحيد فيها .. ملفوفة وطرية .. تضحك وتغنى كثيرا .. لهذا ، تحسدها بنات الحارة ويكدن لها . يقلن لى عنها كلاما كثيرا . وأنا لا أصدق ، فقد كنت - فى صمت المحبين - أحبها .

أفقت لفوزى يقف فوق رأسى ويغمز لها بعينيه . لكزته بكوعى ولم يمنعنى عنه سوى دخول المدرسة .

وفوزى بغل استرالى .. هكذا وصفته المدرسة .. له جسم مدكوك وعينان شبه مغمضتين ، وبأنفه كسر يتباهى بأنه دليل الشقاوة . لطالما تفاخر بأنه يمكنه أن يعمل من أكبر ثلاثة أولاد فى الفصل عجة بالبيض . وأنه لهذا تحبه الفتيات .. وعفاف بالذات واحدة من أكثر البنات هياما به .

بعد الجرس ، رأيتهما وسمعتهما يكركران بالضحك . نكست رأسى لتفجأنى والتلاميذ المتناثرين أمام البوابة بصرختها الحادة غير المكتملة . فهمت أن فوزى قد قرصها . وفيما أهم بالاندفاع اليه

اذا بزحام الأولاد والبنات ينفجر عن الناظرة التى دهمتهما بصدرها المترجرج وخيزرانتها القصيرة · ضربته ضربات موجعة فضحكنا فيما احتقن وجهه ولم يعرف ماذا يفعل · دارت عيناه بنا وبدراجات الأولاد وبالحقائب ، ثم دفعنا بقوة وهرول باتجاه الطريق العمومى ·

أحسست بأن فرصتى قد حانت فضربته « شنكل » واسقطته ثم بركت فوقه · نادت الناظرة على الأساتذة وشكرتنى ، فلم أجرؤ على القول بأن عفاف هى السبب ·

عندما جاءوا وحملوه ، نظر الى بعينيه المغمضتين وقال :

ــ نتقابل العصر عند البحر ·· تحت الكبائن ·

فقبلت ·

- ٥ -

طلبت منى ان أوصلها فلم أبال بالريح ، ولا بخفقات الأقمشة على حبال الغسيل ، ولا بصوت موج البحر اذ يطغى صخبه على صخب الأتومبيلات ، ورحت أتتبع دفقات الدفء التى تنتقل الى كل مكان من جسمى عبر كفها الملتصقة بكفى ·

عند باب بيتها أوقفتها واستدرت لأواجهها · شىء ما جعلنى أمسك بكتفيها وأملى ناظرى من وجهها نطقت :

ــ عفاف ·· أنا أحبك ·

فى البداية لم أفهم نظرتها فابتسمت · ابتسمت تلك البسمة البلهاء الملوية لأسفل ، غير أنها نزعت كتفيها وأجالت عينيها فى وجهى وكورت شفتيها · ظننتها ستقبلنى ، الا أنها صاحت بقسوة ·

ـ يا ابن الشيال ٠

ولطمتنى بكتبها وجرت الى باب بيتها ، فركلت كل ما قابلنى من كيزان وأحجار وتوجهت البحر وأنا أفكر فى أمر هذه البنت التى تعيرنى بعمل أبى فى الميناء ، كأنما نسيت أن أباها ليس الا مرمطونا فى احدى اللوكاندات الحقيرة ٠ ما أن صافحنى هواء البحر وربت على خدى مواسيا حتى خلعت ملابسى وارتميت على موجه الصاخب معانقا باكيا ٠

- ٦ -

ابرز ما يميز شاطىء مدينتنا هو تلك الصفوف المتراصة من الكبائن الخشبية المقامة على أعمدة مرتفعة ، تفصلها عن رطوبة الرمل وملحه ، وتوفر لنا تحت صبية المدينة مكانا طيبا للشجار ، بعيدا عن تدخلات أهل الحى والمعارف ٠ جلست مستندا الى أحد الأعمدة وقد فتر فى الحماس للتقاتل بسبب عفاف بنت المرمطون صحيح أننى خاطرت بتركى للمحل دون اذن من المعلم ، وصحيح أن البرد قد بدأ يلسع جسمى ، الا أننى ظللت على جلستى لأنه التحدى ٠

لو غاب فوزى ساجعلها فضيحة ، وان حضر وأراد الصلح سأتصالح ٠

وحضر ٠

رفع قبضته فالتمعت الخواتم الحديدية ٠ انحنيت من فوزى وقبضت على حفنتى رمل ٠ قال :

ـ سترجع لأمك بدون أسنان ٠

وقلت :

ـ سأجعلك تسف الرمل سفا ٠

لم نضع الوقت ، فلكمنا الهواء ورفسناه ٠ درنا حول الاعمدة وصعدنا فوق السلالم ٠ تقافزنا وجرينا وتشابكنا ٠ سقطنا على الرمل وأسلنا الدماء من أسناننا وأنفينا ٠ أصابنا الاعياء فقلنا فى نفس واحد « نستريح » ، وارتمينا على ظهرينا نتلمس الهواء وننظم من ضربات قلبينا ٠

قال متقطع الصوت :

ـ أعرف أنك غدرت بى بسبب عفاف ٠

أغاظنى أن يذكر تلك الملعونة فوثبت عليه ، الا أنه مال بجسمه فسقطت على وجهى ، وانغرس أنفى وفمى فى التراب ٠ وجدها فرصة فارتمى فوقى :

ـ يا أهبل ٠٠ عفاف ليست لى أو لك ٠٠ عفاف تدرب نفسها ٠

ـ على أى شىء يا بغل ؟

ـ على الصيد ٠٠

والقيته عنى :

ـ أى صيد ؟

ـ ٠٠ العرسان ٠

غصبا عنى ضحكت وضحك وتكسر كل ما بيننا ٠ مددت كفى فمد كفه ثم خلع خواتمه ودسها فى جيبه ٠

علمت منه أنه يعمل بعد الظهر صبى قهوجى ، وأنه يكنس الأرض ويمسحها هى والترابيزات ، وأنه ينتظر لمنتصف الليـل ليجمع المقاعد قبل اغلاق المقهى · وعندما علم أننى أعمل فى محل لحومات قال :

ـ عال ·· نشترى منكم ·

وقال :

ـ البنات يحببن المهيصة ·

وقال :

ـ عندما سنكبر سنفهم أكثر ·

وقال :

ـ عفاف طالعة لأبيها ·

وبصـــق :

ـ أنا لا أحب المدرسة لأنها تسمينى البغل الاسترالى ·

وبرقت عيناه :

ـ لو نبشنا نفايات الكبائن سنخرج بأشياء طيبة ·

ولوى شفتيه :

ـ المعلم يعطى أجرتى لأبى ·

وصنعنا من الرمال قصـورا وفئران وسلاحف وتماسيح ، وجمعنا القواقع الملونة وصنعنا منها للحيوانات عيونا وحراشف ، ولما تعبنا قمنا الى البحـر نعمد صداقتنا الجديدة بالغطس تحت أمواجه التى هدأت فجأة ·

شكانى المعلم فضربتنى أمى ضربا مبرحا ، وجاء أبى فاكمل على • حلفت بأننى لن أعود للعمل بمحل الفحومات وتركت البيت الى البحر •

على واحدة من صخور اللسان الفاصـل بين البحر والقنـاة جلست أحدق فى التماعات الماء والليل والنجوم واسامر عسكرى السواحل الذى حدثنى عن جنيات البحـر والدرافيل والقمر والمد والجزر ، ومهرب الأسماك والحشيش ، وعن ابنه الذى مات من غير سبب ، وعن ضابط النوبتجية الذي يريد قطع عيشه ويتحين به الفرص • وحدثته عن المدرسة وعفاف وفوزى ، وعن أبى ومحل الفحومات الذى نويت تركه ، فضرب على كتفى برفق :

– ارجـع لأهلك يا بنى ، ولو أمروك بنزح البكبـــورتات فافعل •

ثم همس منكمشا :

– الضابط ابن الملعونة حضر •

ومن فوره قفز وسعل وصاح :

– ها •• من هناك ؟

رأيت شبحا يرتدى الكاسكيت ، فانسللت وتسلقت مركبا مائلة وقلت « سأبيت ليلتى فيها » ، الا أنه عندما دخل الليل فى الغطيس ، وبدأت أرتعش من البرد ، قفزت منها وجريت الى منزلنا هرولة •

يخرج اصطفانوس وابنه مكرم الى عرض البحر فى مراكب النأبورطال · مرة مع الريس الصافورى ، ومرة مع الحاج فرج الشبحنة · من كل خيرات البحر لا يعودان بغير أسماك الوحش يضعانها فى طاولة ويرشانها بالماء ويغطيانها بالثلج المجروش ، وأسفل منهما تنشأ بركة تفوح منها رائحة الزفارة · بالسكين والساطور يفصلان الرؤوس ويسلخان الجلود ، قد ينزعان العظم وقد لا ينزعان ، لكنهما فى كل مرة يقسمان اللحم الى جزل وترانشات · يلقيان بالخياشيم والأمعاء الى البركة فتتخاطفها القطط ·

يتقاطر اليهما صبية المعلمين وسائقو البهوات ومرمطونات اللوكاندات والمطاعم · يركلون القطط أو يتفادونها ، ويحملقون فينا أنا والواد فونية صبى الأسطى أحمد السمكرى وفاروق الأويمجى وحسن ابن الداية · نتقارب ونستند الى بنك الأسطى أحمد وننتظر حتى يفرغا لنتلقف ما يوزعانه علينا من عظام وزعانف وبعض أصداغ نجرى بها الى أمهاتنا ليصنعن لنا بها شوربة · فونية أكثرنا خبرة بأسماك الوحش فأبوه قبل أن يموت كان صيادا ·· نعرف أسماك القرش وأبو منقار والوقار ، لكنه الوحيد فينا الذى يميز بسهولة أسماك الشبين والحداية ووطواط البحر · وبسهولة أيضا يميز بين أسماك الباراكودا والدرافيل والحيتان التى يقطعان لحومها فى عرض البحر ليمرا بها من خفر السواحل · لكنه وهو ابن الصياد ينكمش فى جلده ان رأى ترسة تزحف فوق الطاولة أو على بازلت الحارة · فاذا ما أمسك مكرم برقبتها وانهمك اصطفانوس فى حد السكين على السمك فانه يغمى عليه ويختبىء وراء أى شىء

يصـــادفه .. أجولة الفحم ، بنك الأســـطى أحمد ، أو أعمدة الترامسينات .

تحفظ حكايته عن ظهر قلب ، ففي أيام العز هم أبوه يذبح واحدة فرأى فونية عينيها وهما تنطقان بالفزع ، وسقطت دموعها على قدمه . دموع كدموع بنى آدم بالضبط . فتحت فمها وقالت له : حرام . قل له ألا يذبحنى ، فصرخ فى أبيـه : لا تذبحهـا ، لكنه ذبحها ، وفى الليل سمع صراخ أمه ، وعرف أن أباه قد مات قبل أن يصل الى الاسبتالية .

ثم يحدث أن منعنا ما نعلم من أن نخطف فى كل مرة كيزان الأسطى أحمد والانقذاف الى برك المياه ، ومد الكيزان تحت رقبة الترســة المذبوحة لتوها والجرى بما حصلنا عليه من دمائها الى أهالينا . وكانت أمى التى تعانى فقر الدم تجرع ما فى الكوز وتدعو لاصطفانوس وابنه وتتمنى على الله الذى لا يعز عليه عزيز أن يملأ بحرنا بالترسة وأن يجود على حارتنا بلحومها ودماها ، وكنت أجرى الى البحر وادهش كيف لم تغمر دعوات أمى البحر بالترسة التى فى لحومها شبع وفى دماها شفاء .

- ٩ -

تباغتنا الغيمات البيضاء ، فنحار ما اذا كانت قد انبثقت من الأفق أم امتدت اليه . اذ نراهـا ، نجلس على المراكب المـائلة أو المقلوبة مشدوهين ، وأنظـارنا مشدودة الى المناقير البرتقالية والعيون المستديرة وبعض السواد الذى يضايقنا اكتشافه فيها .

قد نضحك أو نصيح أو نصفر لها ، وقد نرميها بالأخشاب والفلين والحجارة ، فترفرف وتملأ الدنيا زعيقا ، لكننا فى كل مرة

تتعجب من آبائنـا الذين لا يصطادون هذه النوارس لنأكلها بدلا من الخلول والفول الذى « حرحش » فينا المصارين ٠

ويحلف فوزى :

ــ وأيمانات المسلمين لأصطاد واحدة وآكلها قدامكم ٠

على الفور ننهمك فى جمع الورق والخشب وننفخ فى النار التى نشعلها تحت المراكب بالجاز الذى يأتى به الواد فونية ، فيما يجرى المهووس الاسترالى يمينا وشمالا ويخوض البحر ويسقط فى الماء وعلى الرمل دون أن يمسك بواحدة ٠

فكرنا أن ليس أفضل من الخروج فى مظاهرات نجمع فيها جميع الأولاد ونذهب الى المحافظة ٠ نذهب ونصيح « النورس » ٠٠ النورس » فيصـدرون أمرا حكوميـا ٠٠ « سمحنا لكـم بأكل النوارس ٠٠ أكل النوارس ليس حـراما » ٠٠ ويذاع النبأ فى الراديوهات وتكتب الصحف ونصبح روادا من أولئك الذين نقرأ لهم فى الكتب ٠ غير أن لسعات الأسفلت ، الذائب تحت حرارة الشمس ، لأقدامنـا العـارية تجعلنا نجرى فى كل مرة جرى الملدوغين وتعيدنا الى البحر ٠

ــ ١٠ ــ

ان أنس فلا أنسى نظـرة الظفر التى أعادت الى وجـه أبى البشاشة التى نسينا أنه يقدر عليها ٠ ألقى بالصندوق الذى يحمله وصرخ :

ــ يا الله يا أولاد ٠٠ يا الله ٠٠ لا محل فحم ولا غيره ٠

ومد ذراعيه ليسحبنا قبل أن نفهم المسالة ، لكننا كنا فرحين لأنه يضحك . نعم يضحك ضحكا حقيقيا ، حتى أمي التى كان يصفها بانها خميرة عكننة ضحكت هي الأخرى ، وحتى يثبت لنا أن هناك سببا لضحكه رفع الصندوق وهبده على الأرض فتناثرت منه كرات خضراء مستديرة . ضرب أمي على عظام ظهرها :

– تفاح .. تفاح يا أولاد الأبالسة .

أخضر . لكنه بالفعل كان تفاحا .. تفاحا كبيرا وحقيقيا .. ما أن هممنا بالهجوم عليه حتي اختطفنا ودفعنا على السلم أمامه :

– فى عرض دين النبى ياالله على المينا ..

دخلنا من باب (٢٠) دون أن يطلب حارس الباب ابراز الباسبورت أو التصريح ولم يعترض علينا نحن صغار السن . من ورائنا دخل اصطفانوس ومكرم . لم يهتما بنا ولم نهتم بهما ، فالأرصفة بالداخل مزدحمة بالكبار والصغار على حد سواء .

– اجلسوا هنا .

وبدون أن يخلع ملابسه ألقى نفسه فى مياه القناة ، التى طشت وفارت ، وابتعد حتى أصبح مجرد ذراعين وفروة رأس تطفو الى جوار الشمندورات وقوارب البمبوطية .. مثله مثل الآخرين .. لما عاد رفع الى الرصيف صندوقا مثل الذى ألقاه فى البيت وزأر :

– لو جاء الجن الأحمر ليأخذه اضربوه ونادونى .

وانقذف الى الماء ليصبح مجرد ذراعين وفروة رأس من جديد . عرفت من الهمهمات والصيحات والضحكات أن واحدة من تلك

المراكب الضخمة ، التى تأتى من بلاد لا يعلم بهـا الا الله . قد اصـــطدمت بأخرى وأشرفت على الغرق ، ولأسباب بحرية ألقى القبطان بالحمولة للماء ، ويا لها من حمولة :

انفرط الصندوق الثانى فهتف أبونا :

ــ كلوا .

ثم رمى بنفسه الى الماء .

تذكرت « فوزى » . لعله الآن يقضم التفاحة المائة . أو لعله يسبح مع السابحين . أجلت ناظرى بين الرصيف والقزق والماء الا أننى لم أر الا رأس حسن ابن الداية وذراعه المتشبثة باحدى الشمندورات .

ــ يسلم دراعك .

صحت بها مشجعا أبى بينما لم يجد أخى الأصغر ، الذى أطاش طعم التفاح بعقله ، غير صيحات طرزان يحيى بها أبانا ، فيما ثأثأ الآخر ولم يقل شيئا ، وارتفعت مقاعدنا وازدادت سيقاننا تشبثا بالصناديق .. كنزنا الذى يفوق كنوز مغارة على بابا ومراكب السندباد .

حينما خف رذاذ الماء ، ولم يعد أبى للسباحـة ، وأخبرته بأن الحصيلة وصلت الى ستة صناديق رفع رأسه الى السماء ولم يصح أو يصرخ ، للمرة الأولى فى هذا اليوم . عندها حط نورس فوق تفاحة مقضومة وراح يرنو الينا فيما علت ضـحكات حسن ابن الـداية ورأيتـــه بأم عينى يعطى صـــندوقا كاملا لمكـــرم ابن اصطفانوس .

علمت أن فوزى قد أصيب بمرض غريب انتزع منه اللحم وجعد الجلد ، ولم يبق منه الا العظم وفجوتى العينين · أكد هذا أنه لم يعد يأتى الى المدرسة أو الى محل الفحومات الذي أعادنى اليه أبي وتقطع مجيئه الى المدرسة وعلمت أن معلم المقهى طرده · وسمعنا الكلمة التى أرجفتنا ·· السل ·

وبدأت أمى تشخط فى وتحذرنى من زيارته فى المصح البحرى وتقول بأننى ان زرته فسيسخطنى الله صرصورا ضئيلا لا يصلح الا للدهس · وجاءوا الى الفصل بأحواضهم وطواقيهم ومعاطفهم البيضاء واخذوا يطعموننا قسرا ويرددون مع رائحة الكحول المنتشرة ·· السل ·· السل ·· لكننى لم أنقطع عن زيارته ·

مست عفاف ساعدى وقالت :

— تعال نتمشى على البحر ·

جمدت ، فهمست بتودد :

— تعال ·

التفت اليها · وجهها هو نفس الوجه الذى ملأ على خيالاتى ، غير أن فوزى يتمدد الآن أمام ناظرى ضعيفا مهزولا ، وصدرى يحتشد بانفعالات شتى ، ولأنفاسى صوت خشن · قلت لها :

— قد يعاكسنا الأولاد ·

— ولا يهمك ·· سأضربهم معك ·

عرجنا الى البحر ، سرنا بحذاء الشاطىء وقد خاط الصمت شفتى · وفى صدرى صفير يشبه صفير براد الشاى ·

صاحت :

ــ ٠٠ انظر ٠٠ نورس اصطاد سمكة ٠٠ انظر ٠٠ انهـا تلمع ٠

والتقطت من بين القواقع قطعة خشب ولوحت بهـا تجـاه النورس ٠

قلت :

ــ فوزى أصبح جلدا على عظم ٠

لوت شفتيها :

ــ يغور ٠

فطار غطاء البراد فى فرقعة ، ولسعتنى السـخونة فعويت وضربتها على وجهها وأمسكتها من كتفيها والقيت بها الى البحر ٠٠ نهضت وبصقت فى وجهى وقذفتنى بالماء وجرت صـارخة مبتلة الثياب والشعر والكتب :

ــ يا ابن الشيال ٠٠ يا ابن ستين كلب ٠

فطاردتهـا بقبضات من الرمل المبلول والقواقع ونفايات البحر :

ــ فوزى يا كلبة ٠٠ فوزى يا نتنة ٠٠ فوزى يا عفنة ٠

عند الأسفلت تركتها وجريت الى فوزى فى المصح البحرى فوجدتهم يسحبون ميتا من العنبر ٠٠ هرولت الى سريره ، وملهوفا كشفت الغطاء ٠ كان هو ، وكان نائما ، فانفثأ خوفى ورنوت من النافذة الى البحر حيث تقاطر خمسة أزواج من المحبين بنعومة على الشاطىء ٠

أمى نحيلة جدا وطويلة جدا ، اذا انحنت لعجين أو لغسيل أو لضربى أنا أو أحد أخوتى تبدو كعامود نور أصيب فى حادث . طالما غرزنا أصابعنا فى جلد صدرها وعددنا عظامها . وكنت أنا بالذات - لأننى أنا الأكبر - أندهش للكيفية التى أرضعتنا بهـا خصوصا أن علب ألبان الرضاعة لم تدخل بيتنا قط .

وأبى عملاق ضخم ، الا أنه صـاحب مرض . لا يشرب ولا يدخن ، لكنه اذا مشى يجر قدميه جرا ، واذا صعد السلم يميل الى الدرابزين ويجلس على كل بسطة . جلده شاحب ، وفمه ملوى ، وعيناه يؤطرهما السواد . ومع هذا فيده « طرشة » ولسـانه طويل ، الا أن لسان أمى أطول ويلسع كما « الفرقلة » . يضربها فتلعن « خاشه » . يلوى ذراعيها فتصرخ بالصوت « الحيانى » ، وتلم عليه الخلق . لكنها تصفو فى أيام بعينها ، وقد تأخذ فى الغناء والتأود على الموسيقى التى تنبعث من راديو الجيران . وأحيانا تجرى عددا من الطقوس على شعر رأسها . والتى بت ، من فرط حرصها على دقتها ، أحفظها عن ظهر قلب .

ما أن توسد حجرها تلك الخرقة التى تجاهد أن تكون بيضاء حتى تبدأ فى تمشيط شعرها على الناشف وتصيد ما يسقط على الخرقة من قمل . أما الصئبان فتسكب من أجلهـا قليلا من الجاز أو الخل أو من الاثنين معا ، وتأخذ فى دعك فروتها به . بعدها تأتى بالطبق الغويط وتنهمك فى غسل شعرها بصابون رضوان الذى لا يحدث - بسبب الجاز - الا رغاوى ضئيلة ، واذا امتلأ الطبق ، فانها تنهض لتسكبه فى المرحاض ، أو تنادى على أحدنا ليقوم بدلا منها بهذه المهمة لتتفرغ لغسله بأثمن قطع الصـابون

الموجودة فى بيتنا . صابون النابلسى المعجون بزيت الزيتون . وبعد أن تشطفه وتجففه تحمل فى حرص الدنيـــا كلها الخرقة البيضاء وتأخذ فى تنفيضها من الشـــباك ثم تمشط شعرها أمام المرآة كثيرة البقع وتلفه بالمنديل « أبو أوية » وتأخذ فى عض شفتيها وقرص خديها .

فى مثل هذه الأيام لم نكن نسمع شجارا ، وعندما يحضر أبى كالعادة ، تضع أمامه أفضل الأطباق ، وتعمل له الشاى الثقيل الذى يحبه ، بعدها ينهض أبى ويخلع ملابسه ويرتدى جلبابه ، مستعجبا من أحوال الدنيا ويذهب ليتمدد على السرير لتغطية أمى باللحاف وتندس الى جواره وهى تصرخ فى بأن آخذ أخوتى وأنزل للشارع لنلعب ، فنهرول من فورنا الى البحر .

- ١٣ -

متأخرين لمحنا تكور بطنهـا ، وعجبت لأننا لم نلحظ هـذه الكره من قبل .. لم تلحظها الا بعد ما ترددت الجارات علينـا بفضلات جلابيبهن وقد صنعن بها فساتين بديعة للنونو ، فعرفنا أن دورنا قد جاء لنحيط بها وقتما نشاء ونصيح ونحن نتلمس الجزء المنبعج :

ـ النونو .. النونو ..

أقمنا المباريات لاختيار الاسم الملائم له والتكهن به . ولد .. بنت .. بنت .. ولد .. الوحيد الملوى « بوزه » ، الســـاهم بنظراته وتحركاته هو أبى .

حينما دخلت أم حسن الداية وأغلقت عليها وعلى أمى الباب ، وصرخت أمى وزأرت وماءت وعوت ونهنهت جمعت أخوتى وتكومنا فى ركن البيت ، أما أبى فقد وقف متسمرا أمامنا ولا أدرى كيف حملته مفاصله المخلخلة كل هذا الوقت .

وثبت اذ رأيت وجه أم حسن يناديني ، ألقت بين يدى صرة رخوة دافئة وقالت :

– ارم هذا الخلاص فى البحر بسرعة .

وعند الباب أوقفتني :

– .. في الغويط .

جريت لا ألوى على شيء ودم أمى ينبثق من الصرة التى تضم أحشاءها ، وعند البحر حرت . قد يدفعها الموج الى الشاطيء .. واللسان البحرى بعيد ، والذهاب اليه يتطلب وقتا ، وأم حسن الداية قالت بسرعة وقالت فى الغويط . من فورى شمرت عن ساقى وخضت فى الماء الى ما بعد ركبتى والقبت بالصرة الى أقصى مكان يمكن لذراعى ان يصله . بعدها ارتقيت واحدا من أبراج الغطاسين وجلست أقلب ناظرى بين الأفق ومشيمة أمى ، التى طفت ، وأفكر فى السمك الذى سيأكله الناس من هذا البحر .. « إنهم سيأكلون أمى » .

– ١٤ –

بعد أن جاءنا ذلك الرجل سحبتنا أمنا لنجد أنفسنا فى غرفة مزدحمة بالناس والروائح الغريبة .. روائح مثل تلك التى أشمها عندما أزور فوزى . رائحة تشبه سم الصراصير . أوقفتنا وأشارت الى شيء أبيض يتفرع عنه عامود معلق فى حامل معدنى .. هه !! .. انه أبى .. قال أحد أخوتى :

– هذا الشيء نظيف جدا يا بابا .

وهتفت أختى :

– ماما .. بابا ملفوف فى حاجة حلوة .

ولحست الجبس بلسانها ٠

احتضنت أمي وجه أبي المكتم ، وبالرغم من تأرجح الدموع على أطراف رموشها ، ابتسمت :

ـ أوحشت العيال ٠٠

ومدت يدها الى جبهته :

ـ شدة وتزول ٠٠

ونهنهت :

ـ سلامتك يا جملى ٠

بعدها بكت ٠بكت وارتمت عليه وهزته وأخذت تولول ٠ وأبى ليس الا عينين وأنف وفم مزدحم بالخراطيم ٠

●

لاحظنا أن الطبلية بدأت تزدحم بأصناف غريبة من الطعام ٠ أصناف لم نعهدها ، ولا نعرف لأى منها اسما ٠ فى البداية خفنا منها ، بل ان بعضنا رفض أن يمد أصابعه اليها ، الا أننا بعد ارتجافة القضمات الأولى انقضضنا عليها انقضاضا ٠ صحيح أنها قليلة وتبدو كالعينات ، الا أنها لذيذة ٠ لذيذة جدا ٠ قالت أمى أسماء خواجاتى ٠ فهذا لانشون ، وهذه بسطرمة ، وذاك بلوبيف ، وتلك التى تحت يد المفعوص الصغير شاورمة ، وما أكلتموه بالأمس يا مفاجيع بفتيك ٠ وغرقت الطبلية لأول مرة فى حياة أسرتنـــا بالجاتوهات والتورتات وكثرت أوامر أمى : كلوا ٠٠ كلوا ٠٠

لم أعرف سر نظرات الشماتة في أعين فاروق وحسن والواد فونية ، لكننى لم أنس فى غمرة التذاذى بحشـــو فمى اختلاس قطعتين لصديقى فوزى ٠

– يا ابن الايه ..

وطفح وجهه بالبشر ، فنفشت ريشي وجلست على طرف السرير فرحا بنجاحي في هز الحزن الطافح من عينيه . مسح زاويتي فمه ولحس اصبعه وسأل :

– جاءكم ضيوف ؟

– ضيوف ؟ .. لا ..

– من أين جئت بها اذن ؟

– من أين ؟ .. أمي أحضرتها .

– أمك أم أبوك ؟

وتحجرت نظرتي واهتز شيء في داخلي ، فتركته وطفقت أجري الى البيت . لم أجد أمي . قال أحد اخوتي :

– في المستشفى .

●

في أقصى العنبر رأيتهما . أمي تجلس على الحافة ، وأبي يستند الى مسند السرير . كانت تبكي وكان يعنفها . خيل الى أن الجبس سوف يتحطم من شدة انفعاله .

– آخر زمن .. تمسحين الكبائن ياوليه ؟ تمسحينها وأنا على وش الدنيا ؟ .

مدت يدها الى فمه لتسكته ، لكنه تملص منها :

– خلاص .. مت في نظرك ؟ .. مت ؟ .

– الشر بره وبعيد .

قالتها أمي بأرق نغمة سمعتها منها في حياتي ٠

ــ خلاص ٠٠ احلفي بأنك لن تمسحي أو تغسلي في الكبائن ٠

ــ وحياتك ٠

تنفست وأبي الصعداء ، وان لم أتمالك نفسي فبكيت وارتميت في أحضن أمي ٠

●

انسحبت الأصناف العجيبة من فوق طبليتنا ليغزوها السمك الصغير ، وتعبأ بيتنا برائحة الزفارة ، فقد كانت أمي تشويه على قطعة صاج فيالبيت٠ أفهمتني أنها تشتريه من الصيادين ، لكنني عرفت أنها تذهب الى البحر وتنتظر صيادى الجرفة حتى ينتهوا من بيع ما يخرجونه للسماكة ، ثم تأخذ في جمع السمك الصغير الذى يلفظونه أثناء نقضهم اياه ، فاذا نهرها أحدهم قالت :

ــ شوية سمك للبط ٠

أكبرت أمي وأصـــبحت أذهب الى البحر بدلا منها وأجمع السمك بنفسى ، فان صرخ في أحدهم أو جرى ورائي ٠ صحت فيه بقحة :

ــ ايه ؟ ٠٠ شوية سمك للبط ٠

- ١٥ -

قبض رجال الصحة على عم حسن وسحبوا عربيته ، فشح الماء بالزير ، ولم تكف الصفائح التى تملؤها أمي من الحنفية الميرى لغير الشرب والطبيخ ، لذا غطت جسمي طبقة سميكة من غبـــار الفحم ٠ فرحت بهـــا وأخذت أقلد لاخوتي عفريت الليل « أبو سبع

رجلين » . وكانت النونو يناغى أبى ، الذى ظل أحد ذراعيه مرفوعا بالجبس كسيمافور السكة الحديد ، بينما رحت أبربش بعينى وأضغط على مقدمة أنفى وأزوم زومات مهيبة .. طرق الباب بعنف حتى أن أمى تفت فى عبها وعزبلت وبسملت وحوقلت وقامت الى الباب لتفتحه قبل أن يتهشم .

اقتحم البيت ضابط بكاسكيت وعدد ممن يرتدون الملافح والطواقى . من ورائهم ، وعلى بسطة السلم لمحت وجهين أعرفهما ، أم فوزى وأبا فوزى . تحامل أبى ونهض بذراعه المرفوعة :

- خير ؟

قال لضابط :

- أين فوزى ؟ .

- فوزى ؟ .. فوزى من ؟ .

اندفعت أم فوزى وتقدمت الجميع :

- فوزى ابنى ..

وكلمتنى :

- .. ابنى ، صاحبك وزميلك .

على الفور اختطفتنى أمى واخفتنى وراء ظهرها . قلت وقد اندس أنفى فى ظهر أمى :

- فوزى فى المستشفى .

صرخت بالتياع :

- لا .. فوزى هرب .. هرب وساب المستشفى .

صرخت أمى بالمقابل :

ـ وما دخلنا نحن ؟

ـ فوزى صاحب ابنك ٠٠ يحبه كثيرا ٠٠ وابنك يزوره فى المستشفى ٠

ـ وما دخل ابنى فى الموضوع ؟ ٠٠ ابعدى عنا يا ولية ٠

عندئذ تدخل الضابط ومد يده بورقة الى ابى ، ولأن أبى لا يعرف القراءة فقد التقطها بيده التى تحمل النونو ودفع بها الى أمى التى ناولتنى اياها ٠ فضضت الورقة وقرأت ٠ كانت موجهة الى :

« زهقت من المستشفى والابر ٠ سلم لى على أمى وأبى ولا تفكر فى عفاف » ٠

امتدت يد الضابط وسحبت الورقة منى ٠ قال :

ـ كلمنا عن المكان الذى ذهب اليه ٠ كلمنا عن عفاف ٠

قلت :

ـ لا أعرف ٠

تقدمت أم فوزى ناحينى فجفلت أمى واستدارت بى لتخفينى عن وجهها الا أنها اكتشفت أننى أصبحت فى مواجهة الضابط فأخذت تتقهقر ببطء الى أن جعلت ظهرى فى حمى الحائط ٠

بدا لى أن ام فوزى ستتحول الى غيمة ٠ حينما تكلمت لم يكن كلاما هذا الذى لامس أذنى ، وانما كان صوت احتكاك ابر بحنجرتها ، أو هو وشيش نسيم أضعف من أن يحرك « الهبو » الذى يسبح فى حزم الضوء المنهمرة من ثقوب حوائط بيتنا ، لكننى مع هذا سمعتها :

ـ ابنى الله يخليك ‥ هات لى ابنى ‥ ابنى يحبك ٠ دلنا عليه ٠

هنا تقدم الضابط وقبض على يدى فازددت تشبثا بظهر أمى :

ـ تكلم والا أخذناك فى « البوكس » ٠

ما أسرع الحركة التى خبطت بها أمى يد الضابط لتخلصني من قبضته ٠ لم يقف أبى موقف المتفرج ، كعادته فى المعارك التى تثيرها أمى ، وانما تقدم ووقف بين أمى والضابط والمخبرين مصوبا ذراعه المتصلبة تجاه كل من يتحرك فى تحد سافر ٠

ـ ابننا لا يعرف شيئا ٠

ـ ولا يعرف مخلوقا اسمه فوزى ٠

ـ لم يزر مستشفى فى حياته ٠

ـ حتى عندما انكسرت لم يزرنى مرة واحدة ٠

ـ البلد فيها ألف ولد له اسم ابننا ٠

ـ ابعدى عنا ياولية ٠

ـ يا حضرة الضابط ٠ هذه الولية تتسلبط ٠

لما ازداد الموقف سخفا تنحنح الضابط بينما نادى أبو فوزى ، الذى لم ينطق بكلمة ، على أم فوزى وأخذها تحت ابطه وهبط الجميع السلم ٠

لحظتها ، ولحظتها فقط ، أوقفتنى أمى قبالتها ، وأخذت تسوى شـعرى وتربت على خدى ، بينما أدام أبى النظـر الى ثم مد يده بخرقة ليجفف دموعى ٠ لم أتمالك فبكيت بحرقة ٠ بكيت لدرجة أن الدموع كانت تسقط فى عبى وعلى أظافر قدمى ، فمدوا أذرعهما

ومددت ذراعي وتلاحمنا ثلاثتنا في حضن طويل بينما تكاثرت فقاقيع اللعاب فوق شفتي النونو الذى أخذ يضرب الهواء بساقيه ٠

***

في الصباح ، قالوا انهم وجدوا فوزى ملفوفا بالطحلب الأخضر ، وأن وجهه كان متلونا بالأزرق ، وأن السمك الصغير كان يسبح بين جلده وملابسه الداخلية ، وأن رحمة الله ألانت اللسان الصخرى فاحتضنه في أحدى تجويفاته وحمى جمجمته من التهشم ٠ ومصمصوا شفاههم « مسكين ٠٠ انهم يمدونه على الرمل في انتظار أهله » ٠

***

تركت كل شيء وجريت ٠ جريت والعمى يغلق عيني ٠ « أيها البحر الخسيس ٠٠ أيها البحر المتوحش ٠٠ أيها البحر الوسخ » ٠ تلقفني حارس الشاطيء ٠ تلقفني وأشار الى الخدوش والآثار الغائرة في الرمل ٠ كنت أعمى ، وكنت أموء ، وكنت أعوى ، لكنني سمعت صعت الحارس :

ـ أخذوه الى المشرحة ٠

حملوك وتركوا الرمل غائرا ٠ تركوا آثار الظهر والقدمين والطحلب ٠ يمزقونك الآن يا فوزى بسكاكينهم ويكسرون عظامك ٠ يستخرجون أمعاءك ويحشونك قطنا ٠ السواد آكلك ويأكلني ٠ يحيط بى ويرمى على صفائحه ٠ يتفجر عن دم أحمر وسمك ميت وعيون كالآبار ٠ والبحر أزرق ٠ شبحان متخاصران ٠ عفاف ٠٠ عفاف بنت المرمطون ٠٠ اتفوه ٠ ها هى عفاف بنت المرمطون وابن

درباله المقاول . يتعرج ظلهما عند انكسارة جذعك يا فوزى . صيد جديد يا فوزى . تتدرب .. تتدرب .

« آآآه »

وانقذفت من جوار الحارس . انقذفت وبصقت على البحر . بصقت وطفقت أحطم المراكب وأمزق الشباك وأعض فى المجاديف وأقذف الموج بكل ما تقع عليه يداى وشبح الحارس يتماوج من خلفى ومن أمامى وثمة صياح وعويل . البنات يحببن المهيصة . نتقابل عند البحر . تحت الكبائن . عفاف تتدرب .. المقهى .. الفحومات .. نشترى منكم . يا ابن الايه . نفايات الكبائن . النورس . النورس . فوزى يا كلبة .. فوزى يا نتنة . فوزى .. فوزى .

وفتحت عينى على شارب أشيب وزمزمية بكف معروقة . حارس الشاطىء . بندقيته مائلة الى فخذه ، وشاربه يهتز :

ـ شد حيلك .

رن صوته فى أذنى صافيا رائقا حزينا نظرت اليه . السماء فوقه زرقاء شديدة الزرقة . استندت على مرفقى وأدرت وجهى شطر البحر . كان هادئا وديعا ، ومتهيئا لغسل هموم المحزونين . قمت واتجهت اليه ومررت كفى على صفحته . كان له ملمس الحرير فملت بوجهى ناحيته ودفنته فيه مستمتعا بملمسه الناعم .

خبطة رأس

كيف نواجه واقعا لم نعمل
على اكتشاف خوافيه ؟

لم ينو فعل شيء من ذلك ، ولم يفكر في أنه يوما سيفعله ٠ كل ما في الأمر أنه في ليلة من تلك الليالي شديدة الحر ، كثيرة الذباب ، تشاجر بحكم العادة مع القرشانة وجيدة ٠ ولما كان هجومها هذه المرة شديدا ، وكلاهما أمر من العلقم اللابد بحلقه ، فقد أطاح بالقبقاب ولطم ابنه خميس ، وهبد وابور الغاز ، ومزق قميصه ، ثم ختمها بأن خبط رأسه في الجدار الطوبي الوحيد بالعشة ٠

اعتزم أن يترك كل شيء ويذهب الى البحر ليبتعد عن الشر ويغني له ، فانحنى باحثا عن فردة شبشبه ، لكن لحظتها ، لحظتها فقط ، انثالت حفنة من جير وأسمنت فوق رأسه وعينيه ٠ حفنة لها هسيس ٠ لم يفعل أكثر من أن هز كفا فوق وجهه ٠ بعدها استمر في نقاره الى أن سحبت الطفل ولملمت أشياءها وخرجت من العشة بلا رجعة كما قالت وتقول كل مرة ٠

لعن الدنيا وبصق وصفق الباب فى أوجه أولاد الحلال الذين جاءوا للفرجة والتطييب ، ثم رمى شبشبه ، وضغط على رأسه لئلا تنفجر ، وركل الوابور ركلة أخيرة ، ووقف وسط نثار الأشياء المتبقية وحيدا غاضبا يحس من فرط ثورته بدفقات الدم تكاد تمزق عروقه .

دار حول نفسه ، ولما لم يجد فائدة من فعل أى شىء انهبد فوق فراشه ، ولكنه لمح فى الجدار كثير النشع دائرة صغيرة منسحبة الى الداخل ، كاشفة عن احمرار نهايتى طوبتين مشبعتين بالرطوبة والماء . قال فى نفسه « هذه خبطة رأسى » ثم نام وهو يبحث عن سبب واحد يمنعه من خبط القرشانة وجيدة برأسه .

قليلون هم رجال وصبية عشش المنطقة الذين تجبرهم ضرورة العيش الى الخروج عند الفجر . هو واحد منهم . قديما لم يكن يفعل هذا ، أما الآن فالنهوض المبكر يعنى بالنسبة له احتلال الموقع المناسب له بالسوق ، فضلا عن تسهيل استئجاره لأفضل عربة يد من المعلم جبر قبل ازدحام الشارع التجارى وقرفه .

نهض ورمى وجهه بالماء المتبقى بالكوز ثم ملأه ثانية من الحلة الكبيرة التى تحتل أفضل ركن بالعشة . منذ كسر المفعوص خميس الزير والحلة تقوم بالواجب . بهدوء وضع الكوز على البلاطة النظيفة ثم اقتعد وعاء قضاء الحاجة .

يذكر جيدا كيف اشتراه . عجوز محنية الظهر طلبت فيه عشرة صاغ وقالت أنه بتاع ناس محترمين ، فزغر لها « أنت حرامية ، والسرقة مكتوبة فى ننى عنيك » . صرخت فيه « وانت مالك يا بياع الروبابيكيا يا قرندلى ؟ » ، وارتضت أن تأخذ فى مقابله طبقا بلاستيكيا ثمنه سبعة قروش .

لطالما فاخرت وجيدة القرشانة نساء المنطقة بأن عشتها هى العشة الوحيدة التى تضم وعاء فخاريا لقضاء الحاجـة · ضخم ومتين · ينفع للصغير والكبير ، ويمكنها هى نفسها ، بكل شحمها ولحمها أن تجلس عليه ، وأن تفعل مثلما يفعل الناس ·

« هجرتنى وغارت بنت المركوبة » · لاكهـا بين أسـنانه واستنجى وشد سرواله · غيابها يعنى أنها لن تقوم بتنظيف الوعاء بعد خروجه ، وأنه فى المساء عندما يعود مهدود الحيل سيجده على حاله ، وعليه اذ ذاك القيام بتنظيفه بنفسه · انقبض · معنى هذا أنه سيخرج ويمر به على ثمانى عشش متقابلة وهو يلف ليصل الى باب دورة المياه الوحيدة بالمنطقة ·

نسيت بنت المركوبة نظـافة مخك وشطارتك عندما أصررت على مخالفتها وبنيت العشة بعيدا عن البكابورت حماية لأشيائك من ميـاه الطفح · « نسيت يا وجيدة ؟ ·· » نسيت ضـحكك على حسنين الدكش اللى بنى فوق البكابورت وشاف بعنيه ابنه بياكل فى الخراء وفاكره شيكولاته ؟ » ·

« آه » ·· كله كوم والمرور على عشـــة الولية المسترجلة أم حندوقة كوم · فعيناها مسلطتان دائما على عشته ، ومعاركها مع وجيدة تملأ كتبـا · أشـد ما يسخطه عليها أنها تتهمه بعدم الرجولة ، وتسميه على مسمع الكل بمسميات لا حصر لها ، أخفها شرابة الخرج والخرع ، وفى كل اشتباك يعلو صوت وجيدة بدعاء بات من فرط تكراره مشهورا عليها « يكفينا شر زوغان العين » ، ثم لا تلبث أن تتهمها بأنها تغوى البحلقة فيما بين أفخاذ الرجال ·

« أتفوه » ·· بصـق بعنف ثم التفت الى كـومة الملابس المستعملة التى يتاجر فيها الآن · صرها فى قطعة الخيش المفرودة

تحتها ٠ وفيما يهم برفعها الى كتفه اذا به يسمع صوت فرقعة مكتومة تبعتها رائحة نتنة كادت تقلب معدته ٠ بالتأكيد لم يكن وعاء قضاء الحاجة مصدرها ، بدليل أنه قد انتهى من مدة وتعود على رائحته ٠ « الريحة دى غريبة » ٠ هكذا حسم الأمر ٠

***

لولا البرص الذى أطل برأسه من وراء كيس الملح المنبوش ، وهرول الى الطبلية المائلة الى جنبها ، ومنها الى الحائط ، لتوكل على الله ومشى لحال سبيله ٠ لكنه ، كما يفعل كل يوم تقريبا ، حمل فردة شبشبه وتحرك تجاهه محاذرا ٠ بالضربة المعتادة هوى عليه ، الا أنه مرق وأسرع الى الدائرة الصغيرة التى أحدثتها خبطة رأسه فى شجار الأمس ٠ هوى بالضربة الثانية فاذا بالبرص يختفى بقدرة قادر فى شق رفيع غير ظاهر فى الأسمنت المتآكل بين نهايتى الطوبتين الحمراوين المتشبعتين بالماء وبالرطوبة ٠

أتى بقطعة الصفيح التى تسميها وجيدة سكينا ، واستند الى الجدار بيده الممسكة بفردة الشبشب لا تزال وعزم على أن يجعل الشق مدفنه الأخير ٠ لم تكن به حاجة لأن يشب بقدميه . أو أن يميل برقبته ، فالشق فى طول قامته بالتمام ٠ ألم يحدث من خبطة رأسه ؟ ٠٠ ما عليه الا أن ينظر فقط ، فان رأى ذيله أو رأسه ، حشر السكين وأنهى الأمر ٠

***

نظر ٠٠ وليته ما نظر ٠٠ ذلك أنه ما ان فعل حتى ألجم ٠ ودونما قصد هوت منه السكين وفردة الشبشب ٠ من كان يظن أن برصا أو خبطة رأس سوف يسلمانه لما هو فيه الآن ٠ حقا ان

العفونة تحت أنفه شديدة ، والفرقعات تبدو واضحة تماما ، الا أن بياض اللحم المتلألىء فى شحوب ضوء المسرجة خطف بصره • ياه •• للوهلة الأولى عرف أنه أمام عجيزة واحدة من نساء المنطقة • لكن من تكون ؟ •• برق السؤال فى ذهنه فصعد بعينيه الجزء العارى من ظهرها وقفز فوق سواد الثوب ليفجأ سواد الطرحة • شب بقدميه وأحنى جذعه ولوى رأسه محاولا رؤية ولو جزء يسير من وجهها فلم يفلح • واذ تعاود عيناه الانزلاق الى العرى الأبيض بدرت من الرأس الغامضة التفاتة فعرف فيها فكيهة الهبلة بنت عم الشيخ أمع شحات حى الافرنج •

« يا بنت الايه ••• » •

توالت الفرقعات كالنسحب • ولسبب ما وجد نفسه يستعيذ بالله من كيد النسوة وبلاويهن ، ثم رفع الصرة واستعان بالفتاح العليم ، الرزاق الكريم ، وخرج لحال سبيله •

***

« اخص عليك يا زمن » • لغط بها ثم ناول زقمة صبى المعلم جبر الجنيهين المتبقيين من الأجرة • طوى زقمة جرناله •• « شفت يا أبو خميس ؟ •• صاحب القرار قبض على كل من له قيمة » • أشاح بيده « شايفنى ناقص وجع دماغ ؟ » ، ثم تابط صرة الخرق المستعمله وعرج الى الجبانة حيث تحتمى وجيدة عند أمهـا • « ثلاثة جنيهات ؟! •• الله يرحم زمان وأيام زمان » • كل ليلة ، وبعدما يسلم عربة اليد ويدفع باقى الأجرة للمعلم جبر أو للواد زقمة يتحسر ، فيما لا يخرج عن هذه الكلمات ، على أيام زمان وخير زمان •• يوم كان ايجار أحسن عربة يد ، جديدة ومدهونة بالزيت ومنقوش عليها أبو زيد الهلالى سلامة راكبا فرسه بفرشاة

طه شحاته نفسه ، ولليوم بطوله ، قرش صاغ واحد . « اخص عليك يا زمن » .

***

« طلقنى » .

مثلما يحدث معه فى الملمات والمصائب انضغطت رقبته بين كتفيه وتغضنت جبهته وارتفع حاجباه وأخذت رموشه فى الاهتزاز ومن تحتها ثبتت حدقتاه على حول تعرفه وجيدة تمام المعرفة ، وتمتعض منه ، حتى أنها لا تملك من شدة القرف الا أن تبصق فى وجهه مثلما فعلت هذه المرة .

« طلقنى » .

« و .. وجيدة .. » .

« طلقنى » .

« ارجعى لعقلك يا وجيدة .. » .

« طلقنى » .

ومن الداخل لاح له جسد حماته وقد اقتعدت شلتتها وانهمكت فى تقشير عدد من حبات البطاطس .

***

قلب بصره بين وجيدة وخميس والفأر الذى مرق من بين قدميه ثم واجهها وارتعشت شفتاه فيما يشبه الابتسام . لكنه ، مثلما تهب عواصف أمشير ، هاج وماج وأزبد وعايرها بقلة أصلها وبدقات النقص التى تعملها معه .. هو الذى أضاع عمره وحرق

أيامه لأجل أن تكون ست محترمة ، لكنها غاوية فقر ، والمناكفة عندها مزة ، فعايرته بانهداد حيله وزناخة مخه وقلة بختها معه ، وأنها تستاهل ما شافته منه ، لأنهـا رضيت بالهم والهم لم يرض بها • وأنها وجيدة على سن ورمح بنت الشمندورى أرجل بمبوطى فى المينا ، الذى لو عاش لعلمه الأدب هو ومن بتشـدد له ، لكنه الزمن الذى جعل الأنذال مثله يتحكمون فيها • رد عليها بأنها قطعة مقملة تاكل وتنكر ، وأن لحم أكتافها من خيره ومن عرق جبينه ، فصرخت فيه أن يتلم وينكسف على دمه ، فواحد غيره كان فرش لها الأرض حرير وأجر لها « فلة » على البحر • وهددته بالنبى ، وبمن نبى النبى نبى ، وان لم يطلقها لتجرسه وتفرج عليه الخلق وتجعل من لا يشترى يتفرج عليه •

كل هذا لم يفت من عضده • الا أنه حينما لمح ارتفاع عجيزة حماته واعتمادها على الأرض بكفيها ، فيما يفهم منه أنها أحست بأن دورهـــا قد جاء ، شد نفسا قويا ورشقها بواحدة من تلك النظرات التى نادرا ما تبدر منه ، وهتف مغيظا « نجوم السما أقرب لك » •

ومن فوره وثب فوق أسن المستنقع ومشى باتجاه هواء البحر وهو يحمد الله على أنه لا يوجد أمام عشته مستنقع مثل هذا ، والفضل لدورة المياه الملاصقة لعشته ، ولمخه المتنور •

***

« أم عين تندب فيها رصاصة ، سابت عشتها وطارت » •

« بنت الحرام ، عديمة الأصول » •

« قال وسمعت يا كبدى انها لافت على طير جديد » •

« يا عينى على الشاب •• يا قهرتى عليه » •

كان يعلم أن أم حندوقة وجارتها حسنات انما تقصدانه هو ولا أحد غيره بتلقيح الكلام ، ولم يكن هذا ليفزعه ـ من كثرة ما تعود ـ قدر فزعه من عينى أم حندوقه التى لا ينفع معها مدفع متروليوز ، فقد دستهما بنت القحبة ، منذ خرج من عشته ، وفى وعاء قضاء الحاجة المترجرج بين يديه ٠

***

كثيرة هى الليـــالى التى تمر عليه مفتـــوح العينين ، ووجيدة المدعوقة بجاز مستلقية فى سابع نومة ، تشخر ولا على بالها شىء ٠ الليلة أيضــــا لم يغمض له جفن ، ولم يرف له رمش والسبب وجيدة ٠ قال فى نفســه « بركة أن جاءت منها » ، فكيله فاض ومرارته فقئت ٠ مرات كثيرة دفعه طهقه الى التفكير فى طريقه للتخلص منها ومن لسانها الزفر ، لكنه فى كل مرة يراجع نفسه ويخزي الشيطان منعا للقيل والقال ، لأجل خاطر الواد خميس ٠

لونت خضرة المســتنقعات المتخللة عشش الجبانة ســقف عشته ، وطفا فوقها بوز وجيدة الملوى فتنهد بتشف ، الا أنه حينما انقلب على جنبه ومد يده متحسسا تقعر المرتبة ، حيث كانت تنام ، أحس بجسمه كله يرتعش ، فاقتعد الفراش وقد ترسخ فى ذهنه ان « لحمها مهما كان ، أبيض ودافىء » ٠

فجأة ، ومثلما يحدث لمن لدغته عقربة ، انقذف الى الأرض واتجه الى الحائط ولصق عينيه بالشق ٠ على الفور انسدلت نقوش الثوب الباهت وأخفى الردفان ثم انفتح البـــاب والصفق ٠ « يا نهـــار أسود » ٠٠ انها زبيدة ، بنت قبضاية ، فتوة سينما الأهلى وبلطجى المنطقة وحاميها ٠ عرفها من صفرة وجهها وهى تلتفت تجاه الحائط الذى ينظــر منه : ليته ما عرف ٠ ليته ما نظــر ٠ هجس ٠٠

« ربما عرفت » ٠٠ وارتعش فى داخله شىء كالشعرة ، وأقر بأنه غبى وأهوج ويستحق ضرب الشبشب لأنه وثب تلك الوثبة ذات الصوت ٠ « هى الدنيا طارت ؟ » ٠

تخيل شكل الفضيحة ونظرات العقربة أم حندوقة وهيجان الرجال وطوب العيال ومصمصة شفاه النسوة ٠ هجس « ربما هدوا العشة » وتكوم على حافة الفراش مخلوع القلب مفزوعا ، الا أن أحدا لم يقتحم عليه عشته سوى صرصور يتدلى منه كيس البيض ٠ أفاق فنهض الى خيشته وصرها ٠٠ وبغير أن يضرب وجهه بالماء أو يقتعد وعاء قضاء الحاجة انتعل شبشبه وأطفأ المصباح وفر الى الخارج ٠

***

فى المساء تف قرص الطعمية من بقه وأمسك بالشـومة ، الا أن فأرا صغيرا وثب من وعاء قضاء الحاجة وفر ٠ ولم يأكل ولم ينم ٠ طول السكة وهو مشغول بالتفكير فيهم ، وفيما سيفعله اذا ما جاءوا ، ويلعن أسلافهم وأسلاف أسلافهم هم وأم جلباب باهت ، والشـق والبرص ، ووجيدة واللحم المربرب والدنيـا وبلاويها ٠ « تكون ليلة سودة ومهببة لمن يقترب من عشته أو يمس قشة واحدة منها » ، وتحسس مطواة قرن الغزال التى اشتراها بمكسب اليوم كله ٠ أكثر من هذا لف أربع خرابات وانتقى شومة تكسر أنشف دماغ ٠

أفاق من نومته مكروشا ، فالسماء تمطر ، والسقف نقع ، والمرتبـة عامت وانزلقت به ناحية الباب الذى اقتحمه قبضاية شـاهرا سكينا ، ومن خلفه انزوى رهط من الجيران يرقبون ٠ تتصدرهم أم حندوقة المتشفية فيه ٠ انقلب ليسحب المطواة فسقط

على الأرض • حوقل وعزبل فكل شيء كما هو ، لا ماء ولا قبضاية ولا أم حندوقة • غير أنه بدأ يميز وشيشا عرف بالغريزة أنه الماء ينسكب • وثب الى الشق فرأى قطرات الماء اذ تنهمر ورآها •

***

وهج المسرجة شديد والكوز الفـــارغ المؤتلقة عليه بعض القطرات تمسك به كف رخصة • انزلق بعينيه عبر الساعد العارى ليفجأ بالنهدين النائمين فى نزق فوق وسادة من فقاعات الصابون من فوره هبط بعينيه الى البطن المدورة ولم يوقفه توهج قطرات الماء المتجمعه حـول السرة بلون البرتقال الذى يحبه ، لانشغاله بالبحث عما يرضى عينيه المحمومتين •

تذكر أنه لم ير وجهها ولعن نفسه لأنه سمح لهذه الفكرة الهايفة بأن تغزوه ، فأى فائدة سيجنيها ان رأى وجهها ؟ •• لن ينوبه الا رفع عينيه من المكان المغروزتين فيهما وما أفلح فى غرزهما الا بالعافية •• ثم ألا يحتمل أن تصطدم عيناه بعينيها فيصيبه ما أصابه من ابنة قبضاية ؟ •• لكن المسألة سيطرت على مخه فرفعهما وأمره لصاحب الأمر •

ما ان عرف فى وجهها الصبوح فطوم امرأة الأسطى يوسف السمكرى حتى حسد نفسه ، فمنذ أن تزوجهـا الأسطى يوسف على أم أتنح وخطت أولى خطواتها فى المنطقة وهى محط أنظار الرجال وأحاديثهم • صحيح أن خناقاتها مع ضرتها نهار كل خميس اكسبتها حنق النسوة جميعا ، الا أن هذا الحنق راجع الى أن كل رجل كان يتمنى أن تكون فطوم زوجة له •

لعن نفسه ونسوان الغبرا ، فها هي قد انحنت أمامه وانسدل شعرها المبلول فوق وجهها وتدلى ثدياها وبانت على عاج ظهرها ظلال الفقارات المرصوصة في نظام بديع • ولأنه لا تستهويه مثل هذه الأشياء ، فقد دعا الله أن يرفعها من انحناءتها وينصبها واقفة في مواجهته ، بشرط أن تغلق عينيها حتى لا ترى الشق ، فيدب الهلع في قلبه • غير أنه ولسبب ما وجد نفسه مستمتعا بالتمعن في تلك الانغرازة الموجودة أسفل القطنية ، وانسراح اللحم فوق عجزتها المشدودة ، وقد قسمتها تلك الانفراجة اليسيرة وجعلتها أشبه بحبة مشمش ناضجة ريانة لا ينقصها سوى أسنان الآكلين •

« ملعون أبوك يا أسطى يوسف •• كانز كل جمال فطوم وحدك ؟ » •• عندئذ استقامت واقفة أمامه ، وسكبت فوق رأسها كل ما بالجردل من ماء ، فبانت أمامه بلا فقاعة صابون واحدة •

شت عقله وتاه في أشياء لا يعرف لها معنى •

صليل الكوز الملقى في الجردل هو الذى أعاد اليه وعيه ، فرأى البشكير ملتفا حول شعرها ، ورآها تنحنى لتلتقط الصابونة واللوفة وملابسها المتسخة ، فقضم شفته السفلية ، ولعن نفسه لأنه تركها تنتهي بهذه السرعة ، وهو الذى تمنى أن تظل تستحم أمامه الى الأبد • لما خرجت ، أفاق الى نفسه ملتصقا تماما بالحائط• وبدأ يشعر بالبلل •

فطوم يا عالم •• فطوم وبس •

***

أمسك بالسكين وأخذ يوسع الشق ويطيله وينظر من خلاله ليتأكد من أنه بدأ يكتشف الدورة كلها • وفي ذات الوقت حرص

على ألا يغالى فى التوسيع حتى لا ينكشف ويفتضح أمره ٠ ماذا لو رآه أحد الرجال الذين يتقاطرون على الدورة قبل صلاة يوم الجمعة ٠ أو واحد من أولئك الذين يأتون فى الليل ٠ ضوء اللمبة قد ينفذ من الشق اليهم فيفضحه ٠ من فوره بحث عن مسمار ودقه فى الحائط وعلق عليه بعض الهلاهيل ٠ هكذا أخفى سره فاطمان وعاود النظر ٠ « لو تأتى فطوم ثانية وتستحم » ٠ أحس بباب الدورة يفتح ، الا أن آذان الفجر تناهى اليه ٠ ولأن اليوم يوم جمعة والسوق بلا شك ستكون مزدحمة . ولأن الجالسة أمامه تتغوط كركوبة تغم النفس ، فقد انحنى الى خيشته فصرها وتوكل على مالك الملك ٠

***

« تطلقها » ٠

انغرزت رقبته بين كتفيه ومسحهم بعينيه الرامشتين وقـد احولتا ٠ ثلاثة رجال الواحـد منهم كالفلق ، ومن خلفهم وقفت وجيدة كتلة شحمية هائلة تطرقع اللبان ٠ أصغرهم ابن أخيهـا رشاد المشهور بمفيعص ٠ خارج من خمس سنوات سجن بتهمة سطو مسلح ٠ كان يضع أصابعه المضمومة خواتم العراك الحديدية ٠ أما الآخران فلا يعرفهما ، وان فتح أحدهما مطواته وأخذ يهرش بها أنفه ٠ لعن نفسه لأنه لم يأخذ المطواة قرن الغزال معه ٠ حتى لو كانت معه ، فماذا عساه أن يفعل مع هذه الجبال المتحركة ؟

نظر الى وجيدة التى فرقعت فقاعة اللبان فى وجهه ٠ سال وقد انسحب صوته « ليه ؟ » ٠ رد الثالث الذى لا يحمل شيئا « حاتجوزها » ٠

(!!!) ·· كأنما سقط عليه حجر · وجد صوته « وخميس ؟ »
انحمات وجيدة « معى » · واقتادوه وعربته الى حيث المأذون ··

امام الشيخ المعمم ، قارن بين جحيم وجيدة والنعمة التى هو فيها الآن · « فطوم » ونسوان كل فجر ، وهز رأسه وبصم ·

« وجيدة يا بنت الكلب » ·

★★★

دوت زغرودة فانقذف مصراعا شباك أم حندوقة · على الفور اخفى وعاء قضاء الحاجة الممتلىء لحافته وراء ظهره واحتمى بباب العشة الذى أغلقه لتوه · هما الآن متواجهان · موقف لا يحسد عليه ، لكنها لم تعره ألتفاتا اذ انشغلت هى ونســـوة العشش المتقابلة بالنظر الى الست أم حسنى وقد كومت كراكيبها وأولادها الخمسة فوق الكارو ومشت مع أبى حسنى أمام الحمار كما يمشى الباشوات ·

« أبو حسنى ، الله يخليه ، برطل ياختى وجاب لنا شقة » ·

زاط العيال خلف الموكب بينما شيعتهم أم حندوقة والست رضا وعبده الكمسارى وبرهومة والحاجة اعتماد بنظرات ملؤهـا الحسد · ما كان أحد ، سواء فى غرزة رجب فتوح أو داخل أى عشة ليصدق أن أبا حسنى ذا الحدبة فى صدره وهم الخمسة عيال يستطيع أن يدفع فى يوم من الأيام مليما واحـدا لجنس مخلوق ، ولو على سبيل الصدقة · صحيح له كام قضية تهريب « لكن عياله ممرمطين به الأرض ومش باينه عليه النعمة » ·

« عملها أبو حسنى وفلح » ·

وارتطمت عيناه بعينى أم حندوقة ، فارتج بين يديه وعاء قضاء الحاجة وسقط على الأرض ، الا أنه لم ينكسر .

***

دهم العشة عواء كلب مضروب أو ما يشبهه . كان يمكنه أن يفتح النافذة أو الباب ويستطلع فى غبشة الفجر ما عساه أن يحدث . لكنه وبالغريزة نهض الى الشق ليطالعه وجه الست أم حسنين وقد علته صفرة لم تفلح حمرة ضوء المسرجة فى اخفائه . ومن فمها المفتوح على آخره وطاقتى أنفها المشعر تندفع دفقات القىء المدمم فى حشرجات تمتزج وبقبقات البراز السائل محدثة ذلك الصوت المفجع . وبين المرة والأخرى تميل برأسها حتى يكاد يلتصق بموزايكو الكنيف المغطى بالقىء والبراز .

واذ يهم برفع عينيه اشفاقا عليها وعلى شيبتها اذا بفأر صغير يثب من فوق السيفون الى احدى ركبتيها فتنزلق وتسقط فى الكنيف .

***

اليوم يوم فطوم .. هكذا حسب .

تبلع بلقمتين وبال فى وعاء قضاء الحاجة وصر خيشته ونظر من الشق على فطوم علها تكون قد وصلت فتشفيه رؤيتها مما هو فيه الآن ، لكنه رأى نوسة بنت أبو سليمة التومرجى الذى لا يمل من مباهاة رجال المنطقة كلهم بأنه لولا حماشته لما أصبحت ابنته من أنجب تلميذات مدرستها الثانوية .

كانت قد نهضت لتوها بعد اقتعادها المرحاض ووقفت أمام الباب دون أن تفتحه . خمن أنها ربما أغضبت أباها وتختفى منه .

لكنه حينما خرجت وصفقت الباب رأى عليه رسما فاضحا لرجل وامرأة عاريين ، فالقى بالصرة واستهواه النظر

« أحسن من صندوق الدنيا ، ويمكن تظهر فطوم » ٠

***

ضحك ٠٠ ضحك كثيرا حتى دمعت عيناه ، ذلك لأنه تبين فى تلك العجفاء ، التى تقرفصت تحت عينيه وسحبت من تحتها حفاضا تغطيه الدماء ، أم حندوقة بوجهها الممصوص وشاربهـــا الأخضر ٠

آه يا أم حندوقة يا بنت الـ ٠٠٠ جاء اليوم ٠ وتراجع عن الشق « الولية المسترجلة بتحيض » ٠٠ وارتمى على الفراش مرهقا من فرط الضحك « الولية المسترجلة بتحيض » ٠ ثم عاد منقذفا الى الشق ، ويا له من فجر حافل ٠

كاد ألا يعرفهـــا ، فهى الآن تتسربل بروب على قد حــــاله ، وهو الذى لم يرها أبدا الا على سنجة عشرة ٠٠ ها هو شعرهـــا الذى لا تستطيع القرطة المخرمة أن تلمه يتهدل على أذنيها وقفاها ويمد أذرعه من ثقوبها بشكل يقرف الدود منه ٠ لا يمكن أن يكون هذا هو شعرها المسرح ذو الوردة التى تأخذ كل يوم لونا جديدا ٠ من يصدق أنها هى (زينات طالعة فيها) ؟! ٠٠ ألم يطلق عليها شبان وشابات المنطقة هذا اللقب سخرية من تعاليها عليهم ، لكنها فاجأتهم باستمرائه حتى أصبح عنوانا على عائلتها كلها ؟ ٠٠ فرك كفيــه ، فلســوف يظفر منها الآن بما ســيحسده عليه الجميع لو علموا ٠٠ لا يهم العماص ، ولا الشعر المهوش ، ولا حتى ثقوب القرطة ٠٠ الأهم العجيزة والفخذان وما قد يبين ٠

وجه عينيه ناحية المرحاض ، الا أنهـا عادت الى البـاب .
لاحقها فرآها تتأكد من احكام الترباس . خطت بتردد أدهشه
باتجاه المرحاض . أولته ظهرها ثم دست كفا مرتعشة فى تلافيف
الروب وأخذ جسمها يتماوج تماوجا دوديا لا يخلو من انتفاضات
وتأوهات أشعلت النار فى رأسه .

فجأة استدارت تجاهه . وفجأة القت بشىء الى المرحاض ،
وامتدت كفها الى حبل السيفون تشده بينما ضج هو بالضحك
ولم يهمه سمعته أم لم تسمعه هذه (الطالعة فيها) .

***

اقتلعته هرولة الأقدام من رقدته فانتعل شبشبه وفتح الباب
لينجرف مع الزحام المندفع بين تعاريج العشش . توقف مع توقفه
أمام عشـة عم بدير بيـاع الجرائد ليطالع الوجوه الجهمة التى
تلاصقت فى شبه دائرة تعلو فى منتصفها قبضات وأحزمة لتهبط
فوق وجه وجسـم أحمد ابن عم بدير طالب الهندسـة الذى ركبه
ستين ألف عفريت فلا يكل ولا يهمد من الوثوب فوق ضرباتهم
والصياح فى المتجمهرين بصوت شرخه الاجهاد « اصـحوا ..
فوقوا .. مصر .. مصر . » بينما أثقلت أذرع بعضهم بمجموعات
من الكتب والمنشورات .

لما هاج الخلق واتجهت القبضات والأحزمة اليهم ، غطس
اقروب تعرج ليجد نفسه أمام عشة الأسطى يوسف . عربدت قطوم
فى صدره فتصلب أمام الشباك الوحيد المفتوح . اللمبة السهارى
مضاءة ، وأعمدة السرير المعدنى تطل عليه من الداخل . أتراها
نائمـه الآن أم مسـتيقظة ؟ .. الهوجـة أيقظت الكل فلمـاذا
لا تستيقظين ؟ .. ورآها تقف في منتصف الغرفة وقد غمرهـا

الضوء فأخذ يملى بصره ويتمعن فى تضاريس الصدر المتوثب وان غطاه ذلك الثوب اللعين « لو تبقى لى يا فطوم » ٠

فتح البــاب وظهرت أم أتح وبيدهــا شىء تلقيه فارتعب ٠ سالت « مالك يا أبو خميس ؟ » ٠ تلعثم ٠ استمرت « الأسطى يوسف ما بيصلحش بوابير فى البيت » ، وأقفلت الباب فى وجهه ، فانصرف حامدا الله ، لأنها لم تلحظ يديه الفارغتين ٠ ومن الشباك كانت فطوم قد اختفت ٠

***

« ولا يهمك ، النسوان على قفا من يشيل » ٠

« ارجع لشغلك يا رجل ٠٠ اللى خلق وجيدة خلق غيرها » ٠

« آه من غدر النسوان وقرف الدنيا » ٠

« اصبر ومصير خميس يرجع لك » ٠

« صحيح ماكذبش اللى قال آه من كيد النسا ٠٠ دخن ٠٠ دخن » ٠

لكنه من شدة انضغاطة رقبته بين حقويه وسرحانه فى ملكوت فطوم ، لم ير الجوزة الممدودة اليه ، ولم يشــعر بخبطات الغابة فوق صدره ٠

نظروا اليه وهو ينهض مندفعا ومترنحا ، كما لو أن ستين عفريتا قد ركبــوه ، ولم يعرفوا أنه ما تـرك الجوزة الا لأنه رأى (زينات طالعة فيها) تتبختر بين العشش ٠

اليها غز الخطو ٠ مشوش الفكر مشبع بالأمل حاله الآن ٠ سينظر اليها بنصف عين ، ومرة واحدة سيقول لها بأن لديه

ما هو أفضل . ان أعرضت ، وحتما ستفعل ، سيغلظ لها القول ويفهمها أن مرة واحدة معه ستنسيها الدنيا وما فيها . لكنه حينما اقترب منهـا ، ورأى أنفها المتعالى والوردة الحمراء المغروزة فى شعرهـا الملفوف لأعلى ازداد انضـغاط رقبته ، ورمشت عيناه واحولتا ، ولم يخرج من بين شفتيه المرتعشتين أى صوت ، مما دعاها لأن تنظر اليه بتعال وتنطق :

« يا سم » .

***

فطوم .. هى فطوم .. لكنها لا تحمل الجردل ولا البشكير .. التصـق أكثر بالشق . ها هى تتجه الى المرحاض . ساراك ، يا سعدى ، وأنت تفعلين مثل الناس . انحنى . انحنى أكثر . أرينى القشـطة والمهلبية يا فاكهة مستوية . سحبت طرف الثوب ورأى سمانتى ساقيها فلعق شفتيه وتنمر .

فجأة ارتجت العشة فوقه ومن حوله . استدار صوب الباب الذى فتح عنوة والصـق ظهـره بالجدار مخفيـا الشـق .. « البوليس ؟! » .

نظر للضابط ولذوى الجلابيب واللبد وقد ملأوا العشـة وارتج عليه .. « والله وعملها قبضاية وخرب بيتك » ، لكنه لم ينس انزال هلاهيله ، واخفاء الشق بها وبجسمه .

« اقلب » .

هكذا نطق الضابط فقلبوا كل شىء بالعشة .

« فتشوه » .

هجم عليه اثنان وفتشا كل ثقب فيه . اصطدمت كف أحدهما ببلل سرواله فبصق عليه « اخص عليك ، نجس ابن نجسة » .

هتف الضابط بنفاد صبر :

« هيه » ؟ .

هزوا رؤوسهم نفيا . أشار الى السقف فكوموا أشياء وارتقوها وفتشوا كل ثقب فى عروق السقف الخشبية وكل فراغ . تنبه الى أنه قد تحرك عن الجدار وخشى أن ينكشف الشق فعاد ليلتصق بالهلاهيل ، لكن ذلك المخبز الغليظ أزاحه بضربة واحدة من خيزرانته ورفع الهلاهيل بطرفها . تنهد بانتصار لما رأى الشق ، فاغمض أبو خميس عينيه منتظرا الطامة الكبرى . دس المخبر اصبعين فى الشق وحاول أن يديرهما فلم يفلح . نخر فى الشق مسقطا التراب الأحمر الرطيب للحظة طالت ، فطال كل شىء وتقزم هو ، الا أن المخبر أعلن انهزامه . أوما اليهم الضابط فانصرفوا وظل هو ينظر الى أبى خميس هازا رأسه ثم زغده بعصاه « أفلت » وأعطاه ظهره .

هرع الى باب العشة المخلوع ليجدهم منتشرين بين العشش كالجراد بينما تلوح غرزة المعلم رجب فتوح على البعد كومة من خشب وغاب ، فلعن الحكومة المغرمة بقطع الأرزاق « ماله يعنى الحشيش ؟ .. واللا انسطال الفقير حرام ؟ » .

تذكر فطوم فوثب الى الشق الا أنها كانت قد اختفت تاركة الدورة لشوارب المخبرين الذين زحموا المكان كالصراصير فحمل حجرا وأخذ يصلح صفيح الباب .

***

« يعنى مش زى عوايدك يا أبو خميس » .
« فطوم يا رجب .. فطوم » .
« اه !! » .

وانحرف الشاكوش فى يد رجب فتوح فدق على اصبعه ، فيما امتزجت زعقة الأسطى سمعان بحشرجة الراديو المهشم الذى يصلحه : خبط سمعان على الراديو وهلل « فعلتها ، والمسيح الحى فعلتها » . عندئذ نهض أبو خميس ودس رأسه بين حقويه هاربا بسره الذى كاد أن يفتضح .

عند التعريشة صرخ فيه سمعان « استنى .. اسمع .. اسمع » ، وعلا صوت المذيع « العالم يودع السادات اليوم » . « الملازم أول خالد الاسلامبولى ارتكب الجريمة مع عدد من الشركاء » . « ريجان لمبارك نؤيدكم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ومبارك يقبل الدعوة لزيارة أمريكا » .

أحس بأن ما يقوله المذيع كلام مهم ، فرجب توقف عن الدق ، والسلاطينى كف عن شد الجوزة ، لكن سره المكنون لا شك أهم ، فرفع حقويه أكثر وانصرف .

***

الخميس . انتظر فطوم والجردل والبشكير ، وجاء الجردل والبشكير ولم تجىء فطوم . أم أتت هى التى جاءت ، وهى التى خلعت ، وهى التى انحنت وفتحت الصنبور وأمسكت باللوفة وواجهته . خشى أن يكون احساسه بالقرف قد سال من عينيه عبر الشق فتكتشفه ، الا أنه بحكم العادة ظل واقفا يتأمل حراشيف القشف فوق لحمها وتعجب كيف تتشاجر هذه الترسة مع غصن البان فطوم .. ويوسف هذا كيف يقدر على اتيانها . « لازم

بيغمض عينيه وبيلبس جوانتي » وضحك • لكنه عاد فاقنع نفسه بأنه لو كان هو شخصيا متزوجا من واحدة مثل فطـوم لأمكنـه ـ من باب الصدقة ـ أن ينام مع نسوان العالم كله دون أن يهتم بمن هن على شاكلة أم أتح •

***

أكله قلبه على ابنه فشد رحله بحذاء البحر الى عشش الجبانة حاملا معه حتة بسبوسة ، عازما أن يعود الى عشته أول الميل لينام حتى لا يفوته ما يدور وراء الشق فى الفجر ، فربما حظى برؤية فطوم • غسل هواء البحر صدره فانشرح ، غير أن أم وجيدة أخذت البسبوسة ودفعته عن باب عشتها صارخة فيه « لا حاتشوفه ولا حايشوفك ، وامشى أحسن يومك مش حايفوت » •• وكان •• فقد زغدته زغدة واحدة كان بعدهـا مطروحا على ظهره وبقبقات المستنقع تؤطره ، وتعلو من حوله الجيف بينما هو يغوص •

***

أبدا لم يكن اليـوم يوما عاديا • هذا ما قـرره وانتهى • فلأول مرة يكسب هذا المكسب بهذا القدر من اليسر • ما من زبون فاصل • ما من زبون سب ولعن • البومة وجيدة كانت بوز نحس • بامكانه الآن أن يشترى زيرا بغطاء يضع عليه كوز سيفن أب معتبر • وبامكانه أيضا أن يرش العشة جير ويغيظ بنت المركوبة • حتى الواد زقمة لم يأخذ من أجرة العربة سوى جنيه واحد وقال له أن المعلم جبر عامل أوكازيون عاشان ناوى يحج • واليوم هو يوم الخميس وفطـوم قد تأتى الليـلة • الأدهى أن أم حندوقة ابتسمت له وهو يدير مفتاحه في قفل العشة • ربما خيل اليه ،

فهي لم تفعلها أبدا ٠ ومع هذا تنهد وهو يغلق الباب مستكثرا كل هذه السعادة على نفسه ٠٠ وقبل الفجر بساعات استقبل الشق ٠

جاءت فكيهة الهبلة وخرجت ٠ صحيح لحمها جميل ، لكنها عبيطة وهبلة ، وفطوم أجمل وأحسن وأحلى مليون مرة ٠ دخلت زبيدة فتشفى منها ومن القلق الذى سببته له يوم أن ظن ـ وليته ما ظن ـ أنها رأته ٠ « طظ فى أبوك يا زبيدة » ٠ دخلت عجوز ٠٠ ثم عجوز ٠٠ ثم نوسة بنت أبو سليمة ٠ وملأت طفلة جردل ميه وخرجت ٠ وغسلت امرأة المواعين ٠ وذبحت أخرى بطة وغسلتها من الدم ٠ وزينات طالعة فيها طشت وشها بالمية وخرجت ٠٠ لكن أين فطوم ؟ « يخرب بيتك يا أسطى يوسف ٠٠ يعنى لازم تتأخر كده ؟ » ٠ تشاجر فاران ثم هربا لتدخل عجوز ، ثم عجوز ٠ تعب من كثرة البحلقة ٠ دخلت حسنات ، ومن بعدهـــا دخلت أم جندوقة ، ثم خلت الدورة واستيقظ ليجد نفسه راقدا أسفل الشق بدون مرتبة أو غطاء ، فلعن نفسه ، لكنه لم يستطع أن يلعن فطوم ٠

***

جنون أو شيء يشبهه ٠ بدون سبب ذهب الى البحر واستحم ، وتحت دش المياه الحلوة تشطف ٠ هو نفسه لا يعرف لماذا فعل هذا ، خصوصا أن البحر كان هائجا ، لكنه فعلها ٠ بعدها عاد مباشرة الى عشته ومنها اتجه الى الأسطى يوسف ، قال للأســطى يوسف « مالك يا أسطى يوسف ؟ ٠٠ زى ما تكون متعكر » ، وقدم له الوابور ٠ « أبدا يا أبو خميس » ، وقلب الوابور ٠ ود لو فاتحه مباشرة وسأله عن فطوم والسبب فى عدم اتيانه اياها بالأمس ، فالتلميح بالكلام المدور يرهقه ٠ « مش رايق يعنى » ٠٠ « أبدا » ٠٠ وفحص الفونية ٠ اغتصب ضـحكة فبالت شـفتاه

وتهدلتـا • لم يعرف ماذا يقول فظلتـا على تهدلهما • « مالـك يا أبو خميس ؟ » • فاجأه الأسطى يوسف سؤاله « لا •• أبدا •• مالك انت ؟ » • ولم يكن يدرى أنه سؤاله هذا يهيىء للأسطى يوسف أن يلقى بقنبلة « لا •• أصل فطوم عيانة قوى » ، ثم دفع اليه بالوابور « الوابور سليم يا أبو خميس » • وانطبقت الدنيا فوق رأسه •

« دى عين وصابتك يا ضناى » •

لأول مرة يسمع أم حندوقة تكلمه بهذه الدرجة من الرقة ، لكنه لم يقدر على التوقف • ود لو سالهـا « تقصدينى يا أم حندوقه ؟ » ، الا أنه لم يقدر ، فاستمر يخب بقدميه واسـتند برأسه الى الباب • ظل وقتا طويلا يعالج القفل دونما فائدة الى أن ساق الله ابن الحلال الذى ساعده على فتحه •

***

جاءه عم بدير مطوى الصدر والرقبة • « أنا مكسوف ، لكن الأفوكاتو طلب متين جنيه علشان يخرج أحمد ابنى من السجن » • كأنما دهسه لورى بمقطورة • انفرج كل شيء فى وجهه ثم جمد • جفناه ، طاقتا أنفه ، شفتاه ، حتى أذنيه هما أيضا انفرجتا وابتعدت أطرافهما عن شعره الملبد • وكما يحدث منه كلما قابلته مصيبة صدرت عنه حشرجة مقضومة وتعلق لسانه فى الظلمة المحصورة بين صفى أسـنانه •

استمر عم بدير وقد غرز عينيه فى براجم قدميه الحافيتين • « أنا مكسوف ، لكن مولانا الشيخ نجـم قال بأننا اخوة وحط فى جيبى تلاتين جنيه ، وفوزى العايق عشرين ، وويصا وأخوه باسيلى

دفعوا عشرين ... » فهم بسهولة لم يعتدها ما قاله عم بدير وما لم يقله ، فالمسألة لن تمر بغير أن يدفع من لحمه الحي شيئا من الكفالة وأتعاب المحامي . هذا ما قرره لنفسه . هم بأن يسب عم بدير .. الشحات ابن الشحات ، ويلعن خاش اللي بعتوه ، واللي بيشتغلوا في السياسة ، لكنه سكت . ود لو تمكن من اخراج حممه ليحرق بها ذلك المطوى أمامه في مذلة مدعاة ، لكن عم بدير فاجأه .. استل عينيه من بين براجم قدميه وألقاهما على الحائط ثم جمعهما وواجهه بهما . من فوره وثب قلب أبي خميس الى حلقه فتحرك الى الوراء قليلا والتصق بالشق والخرقة المسدلة فوقها . قال عم بدير « أنا مش عايز مروة من حد .. تعال معي نرجع لهم الفلوس » .

يبدو أن الليلة هي ليلة الأفكار الألمعية . ذلك أنه مع انشراحه المفاجيء ، وربما بسبب احساسه بملمس الشق والخرقة فوق ظهره ، برق في ذهنه خاطر . من فوره قال « يا رجل .. الجار للجار » وقاده الى عشة الأسطى يوسف « الأسطى يوسف طيب وابن حلال . .الرزق ماشي معاه ومش حايتأخر عنك » .

ولأنه ما قصد غير رؤية فطوم أو الاطمئنان عليها ، فقد سار بعم بدير في التعاريج المؤدية لعشة الأسطى يوسف واجتهد في دعاء ربه أن يلهمه بكلمتين « زي اللي قالهم من شوية » ، الا أنه فوجيء بثلاث رصات كراسي ينزلها الشيالون من فوق عربة كارو ويصفونها أمام باب العشة . لمح أم أتح وقد تسربلت بالسواد ، وسمع نهنهات تخرج من الداخل فتوجس المحظة ، لكنه ما لبث أن فهم أن فطوم تركت الكل وهجت لفوق ، فارتمى مهدودا الى جوار الأسطى يوسف وبكى .

***

« العفش » ٠

ووجد نفسه مدفوعا الى الجدار وسكين الواد مفيعص تلامس بطنه ٠

« كدة يا وجيدة ؟ »

وازداد انغراز السكين فى بطنه المشفوطة ٠

« ولأنك فقير دقة مش حانرفع عليك قضية نفقة » ٠

وانتقل النصل الى رقبته ٠ تحت ذقنه بالتمام ٠

« ٠٠ بس حسك عينك تطلب ضم الواد » ٠

راح يتـابع بعينيه الرامشتين الرجلين اللذين دخـلا وأخذا يحملان كل ما له قيمة ٠٠ المرتبة ، اللحاف ، الحلل الألمونيوم ، الطبلية ، والوابور ٠٠ حتى الحصيرة متآكلة الحواف أخذاها ٠

عندما هم بالاحتجاج وكادت موجة الاهتياج تعتريه ٠ دست السكين فى احدى طاقتى أنفه فتوقف ٠ لما خرجوا نظر عبر تقفيصة السرير المزنوقة فى باب العشـــة الى الواقفين يبحلقون وابتسم بمرارة ٠ بل ضحك ٠ ضحك وقهقه ، فتراقص رأسه فوق السكين لم يمنعه من زحزحة وعاء قضـــاء الحاجة بقدمه واخفائه تحت التقفيصة ٠ « اتفوه على أبو دى عيشـة » ، وارتمى فوق الأرض العارية محتضنا نفسه ٠ مهزوما ٠

***

لم يدر منذ متى وهذا الظل الباهت ملقى أمامه ، والواقع أنه ما كان ليشعر به لولا تلك النأمة اليسيرة التى بدرت منه ٠ لحظتها انتابه فزع المفاجأة ٠ نظر مرتعبا ، فاذا به يرى أم حندوقة واقفة بمفردها بباب العشة وممسكة بلفافة ضخمة ٠ حملق فيها ٠

فاذا بها كليم مصنوع من قصاصات الأقمشة . حول عينيه بسرعة الى وجهها فرأى فى عينيها ، لأول مرة ، اشفاقا حقيقيا تخصه به .

دخلت وفرشت الكليم ، هادئة ، صامتة . صحيح هو قذر وممزق من أكثر من موضع ، لكنها فعلت ما لم يفعله أحد . مدت يدها اليه وأجلسته على الكليم ومسحت على جبهته فاراح رأسه فوق صدرها الأعجف وبكى كما لم يبك فى حياته .

حينما نهضت وغطت عريها نظرت اليه فوجدته نائما وقد استراحت ملامح وجهه ، فانحنت وقبلت ما بين عينيه ووسدت رأسه خرقة كومتها ، ودثرته بقطعة من الملابس المستعملة التى يتاجر بها ثم انصرفت .

عند الفجر ، انقذف من رقدته . ومثلما هى العادة أخذ يتابع ما يدور خلف الشق .

فوق اللســـان الصخرى

النخيلات كما هى لم ترتفع ولم تثمر ، زهور الجرانيا الذابلة تحف بممرات الحديقة ، ولا شىء غير الهدوء الصمت • تسعة أشهر من الغياب فى المدرسة القاهرية ، وكل شىء كمـــا هو •• الفيلا والحديقة والسور والجيران أصحاب الوجوه الميتة • زفرت وقالت « أف » ثم أخذت ديوان الشعر الذى لم تنته منه وخرجت من الفيلا • قطعت الطريق الفاصلة بينها وبين البحر واتجهت صوب اللســـان الصخرى • انتقت صخرة جافة على شىء من الارتفاع ، مسحتها ثم جلست عليها • البحر خلفها والقناة أمامها • همت بفتح الديوان فلمحت عقلتين من غابة علتا فوق الصخور • مالت باتجاه القناة ودلت بصرها فرأته • ولد مشمر الســـاقين والساعدين يمسك بالغابة ، والى جواره شبشب وسلة من خوص وكوز بلاستيكى ترقد فيه زريعة الجمبرى •

نادته « أنت •• يا أنت •• فى القناة سمك ؟ » •

التفت فرأى فتاة تمسك كتابا ، ثوبها ملىء بالزهور وفى خديها غمازتان • ولأن الشمس وراءه فقد رأى شعرها الذى هوشه

النسيم وقد تأطر بالضياء ، ورأى شفتيها المخضبتين اذ تنفرجان ، وسمعها تشرح له « سمك .. سمك » .

أفاق الى قطعة الفلين تغطس والغابة تهتز . جذب مرتبكا فخرجت مع نثار الماء بطحوشة . نظر اليها مغتاظا فضحكت . ألقى البطحوشة الى الماء وألقم السنارة من كوز الجمبرى فيما امتدت ضحكتها ولم تنقطع . منفعلا رمى الخيط الى أقصى ما يستطيع ، وما لبث أن ندم لاكتشافه أن السنارة قد اشتبكت بشيء ما . غمغم « أى يوم أغبر » . واذ رآها منصرفة الى متابعته لوح بذراعه تجاهها « السمك هرب من وشك » . جاءه صوتها مغاضبا « السمك يهرب من شـكلك » .

ما سـمعه كثير .

- لو قام وصفعها ، أو غافلها ووضع سمكة فى عبها ، أو حتى رشها بالماء فلن يجرؤ انسان على لومه . مع هذا تماسك وتخير ألفاظا تليق بفتاة تمسـك كتابا . قال بهدوء هو والصخب سـواء « أحسن لك غورى من هنا » . وقالت « غر أنت » . ثم تمالكت وقالت برنة متعالية « خمسة جنيهات وتغادر اللسان » . صعد فيها بصره فرفعت السعر « خمسة عشر » . انحنى على سلة السمك ليلقيها بها ، لكنه عدل « عشرون وان شئت الزيادة زدت » .

قلب بصره بين زهور الفستان والكتاب والشفتين المطليتين ثم أولاها ظهره . شد الخيط المشتبك فلم يطاوعه . نادته « يا أنت .. رد على » . لم يرد . « باشارة اشترى دستتين من عينتك » .

رشق الغابة بين صخرتين وهم بالصعود اليها الا أن ضحكتها الرائقة الممتدة أوقفته . قلب أمر هذه الفتاة فى رأسه ، وحار ماذا

يفعل معها . سألته « تضايقت ؟ » . بهرته لهجتها الودود ، فألان من لهجته ، الا أن صوته خرج خشنا متعرجا : « أبدا » . « طيب .. قل لى اسمك » . « محمد .. وأنت ؟ » . « نورهان » . « اسم حلو » . « من أصلك » .

افاق على حاوية بضائع تعبر القناة « تفرجى على البواخر بدلا من الفرجة على » . « لا أنت ولا البواخر .. سـأقرأ فى الديوان » . « أحسن » .

فكر وهو يعاود الامساك بالغابة ، لو أنها نظرت من فوق الكتاب ستراه بالحتم وهو لايص . هم بأن يفتح غطاء السلة ويريها أسماك البورى والدنيس واللوت التى اصطادها ، لكنه عدل عن هذه الفكرة ، فماذا عساها أن تظن فيه ؟

***

ارتقى اللسبان ثلاثة فتيان . أولهم شمعى البشرة نصفه العلوى عار الا من صديرى بلا أكمام يحيط بأحد معصميه أنسيال ذهبى ويمسك ببوصة غالية الثمن ، والثانى يضعضع بأسنانه قطعة خشب وبوصته بها ماكينة ، أما الثالث فيضع « نضارة » زجاجها كالمرآة . وعلى بوصته تخفق راية مرسـوم عليها سمكة قرش . ثلاثتهم يعتمرون طواقى بيضاء مهدلة الحواف ويجرون عربات صغيرة عليها ثلاجات بحر وأشياء أخرى .

هتف ذو الصـديرى « لبتة يا ولداه . لبتة » . جـاوبه ذو الخشبة بضحكة مجزوزة ، فيما هرول صاحب « النضارة » حتى وازاهما « أول من سينالها أنا .. تراهنا ؟ » . ووجدوا أنفسهم تحت الصخرة التى تجلس فوقها .

خلع ذو الصديرى طاقيته وحياها بانحناءة جاهد ان تكون لطيفة « تصطادين ؟ » · ردت « أقرأ » · تقدم صاحب النضارة « الصيد اليوم متعة » · « ليس لى مزاج » · « سنارتى رهن اشارتك » · أزاح ذو الصديرى منافسه « سنارتى أقوى وأغلى وأجمل » · قالت « لا أميل للصيد » فقضم ذو الخشبة ضحكته وانصرف لمتابعة التموجات التى أحدثها لنش عابر ·

تقدم ذو الصديرى خطوتين « معنا استريو وساندوتشات لذيذة ومثلجات من كل نوع ·· وسجائر لو شئت » · من فوره أدار صاحب النضارة صمام الستريو فتدوم الجو بأغنية صاخبة · صرخت « أنتم تضايقوننى وتضايقونه » ·

فطن الثلاثة لأول مرة الى الولد مشمر الساقين والساعدين ، كما فطن الولد ، الذى أفلح لتوه فى تخليص سنارته ، لوجودهم · قال ذو الصديرى « من ؟ ·· هذا الجعر ؟! » ·· وانقذف هابطا اليه فيما قال صاحب النضارة « يقينا هو ابن بواب أو فران ·· » وأعقب ذو الخشبة « ·· أو زبال » ·

صرخت نورهان « اتركونا فى حالنا » ، ونادت الفتى المشمر « خل بالك » ، وكان ذو الصديرى قد دار حوله ، لكن الالتفاتة السريعة من محمد جعلته يتوقف ويضع كفيه فى خاصرتيه « اخرج سنارتك وأعطنا عرض أكتافك » ·

سلط محمد عينيه فى الوجه الشمعى وضغط على الحروف « غر من قدامى والا جعلت وشك ضامات وارجعتك لأمك محمولا على نقالة » · اربد الوجه الشمعى · وظهرت له ملامح وقسمات « اه ؟! » ، وبكل قوته ركل كوز الجمبرى فارتفع فى الهواء ليسقط الجمبرى

ويخر الماء ، قبل أن يسقط الكوز فيحدث بقبقبة وطرطشات ودوامة ما لبث أن تلاشت ٠

صرخت « انكسف على دمك يا كالح يا هايف » ٠ بسرعة زنق محمد غابته بين نفس الصخرتين ووقف قبالة ذى الصديرى ٠ فكر ٠٠ أمر هذا الأهوج سهل ، لكن ماذا عن الآخرين ؟ ٠٠ فجأة ، اندفع الرأس الشمعى ورطم صدر محمد ، لكن محمدا لم يصرخ ولم يتأوه ٠ مادت ذراعاه فى الهواء ، هذا صحيح ٠ ترنح وانثنى وكاد يهوى الى الماء ، هذا ما شاهدته نورهان ، لكنه سرعان ما استعاد توازنه ووقف منفوخا بالغضب « طيب ٠٠ خذ » ٠ لطمه لطمتين ثم شده من قفاه وضغط على رقبته ٠ رأى وجهه يتألم فجذبه من تحت ابطه ، وبرمية واحدة ألقاه في الماء ٠ صرخ وهو يضبش فى الماء « الحقونى » فمد محمـد ذراعه وانتشله ليرتمى فوق صـخرة مضعضعا مبلولا ٠ هرولة هبط صاحب النضارة وذو الخشبة ٠ لم يتجها الى رفيقهما وانما اتجها صوب محمد ٠ ذو الخشبة اندفع نحوه فمد محمد يده وانتزع الخشبة من بين أسنانه وحز بها خده فصرخ وأقعى ينظر للدماء التى سالت على التيشيرت ٠ من فوره هم صاحب النضارة بالفرار فلحقه ٠ خائرا وجه لمحمد لكمة ، لكنه صدها وأعطاه بدلا منها واحدة فى بطنه ثم عاجله بأخـرى خطافية ارتطمت بذقنه فطار وسقط الى جوار ذى الخشبة ٠

هبطت نورهان الى مكان الموقعة ٠ كانت منتعشـة ٠ رمتهم بنظرة استعلاء ثم قالت لمحمد « تعالى نمشى » ٠ متباهيا حمل الغابة وسلة السمك وانتعل شبشبه ومشى الى جوارها مخلفـا الثلاثة بخزيهـم ٠

* * *

فى اليوم التالى ، بنفس الموقع من اللسان الصخرى تجاورا ٠ نورهان ومحمد ٠ كلاهما أمسك بنفس الغابة ، هى بفستانها كثير

الزهور وهو ببنطلونه المشمر ، والى جوارهما السلة وكوز جديد مملوء بالجمبرى الصغير · حذاؤها وشبشبه الى جـــوار الكوز مقلوبان ، وديوان الشعر مزنوق بين صخرتين · هى تبتسم وهو لاينى يعلمها كيف يكون الصيد · سألتــــه « لماذا لاتصـــطاد من البحر ؟ » · أجاب « هنـــا الصيد أوفر ، وهناك الموج أعنف » · غمزت السنارة فرفعا الغابة معا لتتأرجح فوقهما قاروصة ريانة تنثر فوقهما رذاذ الماء المتبلور ·

صاحت « سمكة جميلة يا محمد ·· ما اسمها يا محمد ؟ » · اســـتهول سذاجتهــــا « لاتعــــرفين ؟! » ·· هزت رأســــها ·· « بجد ·· بجد ؟ » ·· هزت رأسها ثانية · عندئذ انتزع السمكة · أدناها منها وهى بعد تنتفض وتفتح فاها وتهز زعانفها · ضحكت « قل يا محمد ·· محمد قل » · « قاروص » · واذ يدســــها فى السلة الى جوار سابقاتها ســـمعها تتســـال « ســــمك الفتاة كله قاروص ؟ » · ضـــحك · لم يكن أما الا أن يضــحك · بل جلجل بالضحك وهو يعيد تلقيم الســــــنارة بالطعم · أحست بما أوقعت نفسها فيه فاحتقن وجهها وغامت عينـــاها بالدمع لولا أن قطعة الفلين ، التى لا مست الماء بالكاد ، غطست · سارعا بالجذب فتالقت فى الهواء أكبر قاروصة اصطاداها ·

صفقت جذلانة ودموعها ماتزال تترقرق فى عينيها ، لكن حدث أن الماء الذى نثرته القاروصة كان غزيرا · وحدث أيضا أن نصيب صدرها منه كان كثيرا فالتصقت زهور الفستان بثدييها · فاجأته التضاريس وأثارته فاستدار · هى أيضا شعرت بما أحدثه البلل فغطت صدرها بكفيها · وفعل محمـــــد ما أدهشها ، خلع قميصه وناولها اياه وهو مايزال موليا ظهره لها · ممتنة غطت به صدرها · شمت رائحة العرق والزفارة ، لكنها لم تبال وعادت

الى مشاركته امساك الغابة • قال مداريا ارتبـــاكه « فى القناة قاروص وبورى ودنيس ووقار ولوت ونقط •• خيرها كثير •• فيها أيضا بطحوش وزلغانة » • وقالت مدارية ارتباكها هى الأخـــرى « أسراب القاروص تحتل القناة اليوم » ، وانفجرا فى ضحكة واحدة وهما يخرجان قاروصة أخرى •

لما امتلات السلة كان فستانهـــا قد جف فأعطته القميص وقالت « نقوم » • عندئذ •• وعندئذ فقط •• نظـــر الى عينيها فشده • رأى صورته منعكسة على صفاء العسل الذى فيهما • عسل رائق •• شفاف وعميق • ورأى ســـنارته تغز العسل فجفـــل والقـــاها •

لم يخف عليها ما طرأ على محمد فقالت « هيا نمشى فتمالك • ارتجف ثم تمالك • رآها تلتقط الديوان وتنتعل حذاءها ، فدس القميص فى البنطلون وانتعل شبشبه هو الآخر • وفيما تستدير هتف « انتظرى » • التفتت اليه فناولهـــا السلة « اقبليها منى هدية » • حارت ماذا تفعل ، لكنها أخذتهـــا وناولتـــه الديوان فتلقفه ملهوفا •

عندما ارتقيا الصخور رأيا الفتيـــان الثلاثة يصطادون من ناحية البحر والبلاستر مفرود على خدى ذى الخشبة •

* * *

فى اليوم الثالث أمسكت نورهان الســـنارة بمفـــردها ، فيما جلس محمد يقرأ فى ديوان الشعر • اصطادت أسماكا كثيرة متنوعة • ومع كل سمكة غير القاروص كانت تسأله عن اســـمها فيجيب • أما هو فبالكاد أنهى خمس صفحات من الديوان ، والكلمة

التى كانت تستغلق عليه لم يحاول أن يسألها عنها ، حتى لا ينفضح أمره ، فيهبط من نظرها أو تسخر منه ٠

سأله أبوه عن السمك الذى قل ، وعن هذا الكتاب الذى يلازمه فأجابه محمد بصراحة ولم يخف شيئا ٠ وهى شرحت لأختها سر السمك الذى زحم السفرة والديب فريزر ٠ الأب حكى للأم ، والأم وقفت على رأس محمد « لماذا يا محمد ؟ ٠٠ لاهى من ثوبنا يا بنى ولا نحن من ثوبها » ٠ والأخت كلمت زوجها فأصدر من فوزه قرارا « لاترينه يا نورهان ولا يراك » ٠

***

وحده ، فى نفس المكان ، جلس ٠ السنارة على الحجارة ملقاة والديوان بين يديه ٠

وهى ظلت حبيسة حديقة الفيلا بين النخيلات ، التى لم ترتفع ولم تثمر ، وأمام زهور الجرانيا الذابلة ٠ لا التليفزيون أفلح فى تسليتها ٠٠ ولا شرائط الفيديو التى جلبتها أختها لها ٠٠ ولا جهاز الكمبيوتر وألعـــابه ٠٠ حتى المكالمات التى انهمرت عليهـــا من صويحباتها بتوجيه من أختها لم تزدها الا سأما ٠ بعد أن زهقت من مداهناتهن نزعت سلك تليفون غرفتها ، وكتمت أنفاس التليفون المحمول ورمته فى درج ملابســـها ٠ قالت لهـا أختهـا « أفيقى يا نورهان ٠٠ الحياة ليست دواوين شعر ولا روايات » ٠ ومن عيون نورهان تنفجر الدموع « وافقينا يا نورهان نســـمح لك بالخروج مع الكاميرا » ٠ لكنها لم توافق ٠

تشاورت أخت نورهان مع زوجها « البنت ذبلت ٠٠ النزوة طالت ٠٠ نأخذها ونسافر » ٠

وقال أبو محمد لأم محمـــد « الولد لايعجبنى حـــاله ٠٠ نخطب له » ٠

***

انتهى محمد من قراءة الديـوان ثـلاث مرات ولم تظهـر نورهان ٠ هو الآن أكثر توترا ٠ لايعرف مكان فيلاتها ، ولا يعرف أين يجدها ٠ لاهو سألهـا ولا هى أخبرته ٠ طاف البحر ومشى بمحاذاة القناة ٠ مر على فيلات المرشـــدين ، والثراة والعاملين بالهيئة ٠ عبر القناة الى بور فؤاد ٠ بحث فى كل الأرجاء ٠ أعصابه التهبت والشمس حرقت جلده ٠ شـبان الحارة بدأوا يتساءلون عن سر عزوفه عنهم ٠ بعضهم سأل أباه فحكى ٠ وفضفض ، فمنهم من تابعه عن بعد ، ومنهم من حـاول التسرية عنه ، لكنه أبدا لم يرح نفســـه ٠

سأله أبوه « ما رأيك فى ابنة الحاجة فهيمة ؟ » ٠ وقالت له أمه « كريمة بنت الريس شلبيل بنت أصول ومن ثوبنا » ، لكنه تركهما وعاد الى التطواف بين أسوار الفيلات الضاجة بالحركة وتلك الغارقة فى الصمت ٠

على اللسان الصخرى رأى الفتيان الثلاثة بعرباتهم وبوصاتهم الراية المرســوم عليها ســمكة القرش ، فدس الديـوان بين لحمه وحزام البنطلون ثم راح يقذفهـــم بكل ما يقع تحت يديه حتى أخرجهما من منطقة اللسان تماما ٠

أفلحت نورهان فى الافلات من حصار الفيللا ٠ الى اللسان هرولت ٠ لم يصدقا أنهما التقيا ٠ الى مكانهما المعهود انحدرا ٠ الغـــابة فى البيت والديوان معــه ٠ جلســـا على الصخر لا شئ يشغلهما ٠ قال لها « لاتغيبى عنى » وقالـــت له « حبســونى فى

الفيلا » . قال « قرأت الديوان ثلاث مرات » . وقالت « الدنيـــا بدونك لا معنى لهـا » .. ووثب درفيـل مـن الماء .. واجههما فابتســـما .

جرؤ محمــد فطوقها بذراعه . نورهان فعلــت أيضــا مثلما فعل . فى وثبته الثانية رأيا الدرفيـل يتراجع بامتـــداد جسمه وسمعا صفيره « فرح هو أم حزين ؟ » ، وأتبعت نورهان سؤالها بنظرة لمحمد ، لكن محمدا انتفض « الدرفيــل يحذرنا » . اندهشت « يحذرنا ؟! » . وما هى الا التفاتة واذا باللسان الصخرى فوقهما يعج بالفتيان والصبية المسكين بالهـراوات والأحزمة . ورأى محمــد التماعة خواتم الحديد فى قبضــات الفتيــان الثلاثة فأخفى نورهان خلف ظهره وعاود دس الديوان بين لحمه وحزام البنطلون وصعد بها متهيئا للعراك ، وفيما لمحت نورهان أختها تجر زوجها وتشق جموع المتزاحمين على اللسان ، رأى محمد أباه يتصدر عددا من شــبان الحارة وتأكد ، من هرولتهم ، أنهـــم ما جاءوا الا لانقاذهما .

بالقرب من القرية السياحية

لا حركة بامتداد البراح الفسيح · لا صـوت · حتى بيوت القرية السياحية نامت كبجعات بيضاء مطوية الأجنحة · وهناك بأقصى الغرب ، قرب البوغاز الواصل بين البحر والبحيرة يوجد قوس الأحجار الصناعية · أسفل منه باتجاه الشاطىء يستكين الماء · أزرق شفاف · تخزه أشعة الشمس فيتلألأ فضـيا تارة وذهبيا أخرى · حتى اندياحـات البوغاز المعتكر بالرمادى والبنى تروح وتجىء ، من البحر واليه ، دونما صوت ·

الى هناك ، الى قلب الماء المترامى انزلق بهدوء قارب خفيف · فيه اثنان · رجل وامرأة · هو يمسك بالمجدافين ، وهى مفرودة الجسم تبتسم · ربما جاءا من القرية السياحية ، وربما من أى مكان آخر ، لكنهما اقتحما المشهد فجـأة · هو بالشـورت والفانلة الرماديين ، وهى بذلك الشىء الوردى الذى يغطى صـدرها وبطنها وينحسر عن طرف المايـوه المشـجر · ربمـا بوغتا بالصمت الذى تحفز لهما ، وربما بانعدام الحركة فى قضاء لا يتحرك فيه سواهما · توقفت حركة المجدافين فى يديه ، فلا صوت يصدر ولا طرطشـة

تعلو . هى أيضا مالت بجسمها واشرأبت برأسها تتسمع ما عساه أن يختفى وراء كل هذا الصمت . لكن الجســـد البرونزى عاد لاحتضان أشعة الشمس بينما ظل هو منصــتا ومهتما ومقتربا . همست ، وما كان لها أمام هذا الجلال الا أن تهمس :

– لن تسمع شيئا .

فهمس بدوره :

– لكأن الصمت يتنفس .

لعل المجدافين قد غزا الماء الى الوراء ، والا ما انزلق القارب بهذا الشكل المفاجىء ليتواجها مباشرة وأطراف الأحجار الصناعية عند بداية القوس . بدربة خبير ، وربما بضربة حظ أحنى مجدافا فاستقامت مقدمة القارب باتجاه الأفق العريض . بانحناءة أخرى استدار ليجدا نفسيهما فى مواجهة زرقة لا مثيل لها . زرقة غامقة عميقة ، ومع هذا فهى رائقة شفافة . أشعة الشمس ، وان تعرجت على السطح وتلألأت فى أعداد لاحصر لها من القشور والزعانف ذوات البريق ، الا أنهـــا ما لبثت أن استقامت وهى تهبط الى الأعماق لتذوب فيها وتذوبها .

ناداهما الماء فهبطا اليه . هو نزع التيشيرت والشورت ، وهى تخلصت من هذا الشىء الوردى . الشهر ليس شــــهر اصطياف أو سباحة ، لكنهما فيما يبدو ما جاءا الا لهذا الغرض . فالطقس رائع والبحر آسر . فى هبوطهما بهدوء . لم يقفزا من القارب . لم يجدفا لا بالأذرع والأكف ، ولا بالسيقان والأقدام . فقط انزلقا من أحد جانبى القارب وانغمسـا فى الماء حتى غمر جسميهما باســـتثناء رأسيهما المتنعمين بفيض الهـــواء المملح وبهـاء الضياء .

من موضعيهما رأيا الجزءين المغمـــورين من القـارب ومن المجداف كما هما بنفس الوانهما وهيئتيهما · فقط نالهما بعض التعرج اليسير وبعض من زرقة الماء · كأنما قد ألصقت عليهما ورقة سوليفان زرقاء · كذلك الأمـر مع جسميهما وأطرافهما · بنفس الهدوء عبا من الهواء حتى امتلأ صـدراهما ثم غطسا · لا ·· بل غمرا رأسيهما حتى لا يأثمان فى حق الجلال المحيط ·

تحت سطح الماء فتحا أعينهما وتواجها · كل منهما يرى الآخر بكامله دون اعتكار أو تعرج · رأى فقاعات الهواء تساعد من بين شفتيها فأشار اليها أن احتفظى بالهواء لأطول فترة ممكنة · أسفل منهما الزرقة التى تفصـل بينهما وبين القـــاع البعيد · تقوسا وغاصا اليه · أذرعهما الى أســـفل وأقدامهما فى الأعلى ولا يدفان بأى منها ، فلا تيـــارات ولا دوامات ولا ضغط · مـن يراهما فى نزولهما يظن أنهما يمســـكان بحبـــل أو ما شابه · ملامحهما واضحة كل منهما تماما · صحيح أن الفقاعات تتصاعد مـن وجهيهما الى الأعلى فى خطين نحيلين متقطعين من الدوائـر الدقيقة ، الا أنها من الضآلة بحيث لا تحول دون رؤية كل منهما لوجه الآخر · لا أثر للمجاهدة أو العنـاء على حركة جسديهما ، وملامحهما يبين فيها التوفز ، لكن الاطمئنان يشيع منهما ·

توقفا عن الغوص لما رأيا نفسيهما قبـــالة القاع تماما ، شـــبران أو ثلاثة ويلمسانه · انثنت بكامـل جســمها حتى جاورته · الزرقة حولهما متداخلة مع خضرة خفيفة ، ورمال القاع تشى بصفرة كساها الأزرق بخضرة فاتحة · أمامهما قطار من الجمبرى المتهادى وعدد غير قليل من جعارين البحر ، وسميكات (غطا موسى) متناثرة فى مدى الرؤية حولهما ، منها ما كاد يلامس فى سباحته القاع ، ومنها ما رقد على رماله واستكان · أما القواقع فلا تنى على كثرتها تفتح مصاريعها وتخرج ألسنتها · والبلانكتون

غمامات خضراء متكاثفة هنا وهناك ، وثمة طحالب وأعشاب غامقة وأخرى قصيرة تتحرك لاحتكاك هذه السمكة أو تلك بها • أشار اليها أن انظري • نظرت فرأت سربا من السراطين يهرول بالاتجاه المعاكس ويثير رمال القاع فترتفع قليلا ثم ترسب • ورأت سمكة وقار ضخمة ترقد بجلدها المنقط أسفل دروة من الرمل ترتفع عن مستوى القاع • أشارت اليه •• انظر هنا •• هنا •• كانت سمكة /الوقار تفتح فمها وتغلقه فيما يشبه التثاؤب ، خياشيمها تخفق وعيناها مدورتان جاحظتان ، لايعرفان ان كانتا تنظران اليهما أولا تنظران •

تحولت سباحتهما الى شيء أشبه بالرقص ، بل هو الرقص عينه • معلقان في الماء كانا • استدارا وتقابلا • حركت كتفا فحرك المقابل • انقلبت على ظهرها فمال الى جنبه • التقت أكفهما وامتطت أذرعهما • انثنى صدره للأمام وماد خصرها للخلف • في سلاسة وانسياب تحركا • نفث الهواء خـــرج من صدريهما موقعا له صوت يتفق وانتفاخات الفقاعات وضمورها • رســـما دائرة بجسميهما • تعامدا والتفا ، ثم تخاصرا والتصقا • في غمرة انتشائهما أحسا بمويجات خفيفة بدأت تلمس بشرتيهما • مويجات خافقة لايؤبه لها ، وأسفل منهما استمرت حياة القاع في مسارها الطبيعي • ومن حولهما عالم أسطوري من الماء والزرقة المشوبة بالأخضر ، وخيوط الضوء شـــلالات تغز الماء من فوق وتكشف بعض الأسرار •

هما بمعاودة الرقص ، لكن المويجات الخفية زادت وصحبها ما يشبه الطنين المكتوم • وما لبث أن اندفق باتجاههما سرب هائل من أسماك (السيجان) •• صغيرة ورقيقة ، لكنها مـن الكثافة بحيث حجبت الكثير من مجال الرؤية • حتى هما جرفهما السرب

وفصل بينهما · جاهدا حتى تماسكا كفا لكف · المفاجأة أخرجت الهواء منهما فى بقبقات كبيرة متصـــلة · نظما أنفاسهما وحاولا الخـــروج عن مسار السرب فافزعهما ارتطام الذيول والزعانف بجسديهما · علقت الأسماك بشعرها واندفست بين ثدييها وتحت ابطيها · مرعوبة راحت تنفضها عنها فتعلق بها ثانية · ساعدها فى ازاحة ما أحاط بها واخراج مالبد بشعرها فدخلت سميكة فى احدى فتحتى أنفه · كاد يشرق بالماء وهو يسحبها فلا تخرج ·· يسحبها فلا تخرج · أخيرا انتزعها فجرح أنفه وسال الدم فى نفثات أحمر لهـــا الماء المحيط بهما · التصـــقت مجموعات من الأسماك بوجهيهما فراحا يدفعانها ويلطمانها فيلطمان خدودهما · أصابتهما خدوش الزعانف والحراشـــف ورأى كل منهما هول ما حدث فى وجه الآخر · بكل ما يملكان من قوة اندفعـــا الى الأعلى ، لكن أسماك السيجان كانت فوقهما دائما اندفعا ثانيـــة وثالثة والأسماك فوقهما · الهـــواء قل وأعصابهما توتـــرت · بل اهتزت · عيونهما جحظت ومخزونهما من الهواء كاد ينفد · اندفعا مرة أخرى والأسماك لاتختفى ولا تخف كثافتها ·

بدأ الخور يعتريهما ، وكادت هى أن تستسلم فانقلبت على بطنها وارتخت أطرافها · هى الهستيريا التى ســـيطرت عليه أو شيء يشبهها ، أفاق لما صرخ ملتاعا ورأى اندفاقة الهواء من فمه ضخمة ومنذرة بخطر الموت وأغلقه وكتم أنفاسه وراح يجـــرها افقيا تارة ورأسيا أخرى ، ثم انزلق أسفل منها وبكل قوته دفعها من اليتها صوب السطح · دف ساقيه فشتت أسماكا كثيرة تجمعت بينهما ، وصعد حتى وازاها · واذ يقبض على زندها ليسحبها فعص بعض سميكات بين كفه المتوترة وجلدها كثير الخدوش ، ولم يبال بانغراز الأشواك فى كفـــه أو فى جلدها · بالذراع الأخرى أخذ يغالب هياج الأجسام الصغيرة ويتشبث بالماء ليصعد

ويصعد حتى رأى الماء وقد عادت اليه شفافيته • هزها بعصبية أن افيقي لكنها لم تفق • رأى فقاعات الهواء تندفق من فمها متواترة متصلة فأسرع باطباق شفتيه على شـــفتيها ، وراح يدفع مـن مخزون هوائه الى صدرها • فتحت عينيها فابتسم وضحك وبكى مما أضاع نفثات هواء كثيرة من صدره •

أشار اليها وهو يجذبها صوب الأعلى • انظرى •• انظرى • تلفتت بعينين مجهدتين ولم تصدق أنهما قد أفلحا في الخروج من أسر (السيجان) ، لكن ضجيجا مكتوما ارعبهما • لعله ضجيج كضجيج طبـول الحرب أو أشـد وقعـا •• يضغط عليهما من كل ناحية ويرج جسميهما رجا •• ضغطه هائل ومفزع • كلما ارتفعا ازداد • شلالات الضـــوء فوقهما مازالت لكن خطوطها تعرجت ونهاياتها ماتزال بعيدة •

وما كانا ليقدران ، وهما على هذه الحالة من الاعياء ، والا أن يستمرا في الصعود • لعل أعينهما قد خرجت تماما من محاجرهما وقد دهمهما الرعـــب الذي ما كاد يخف الا ليعود أكثر ضراوة وأعنف وطأة • فقد عادت نفس أسراب « السيجان » من الاتجاه الذي كانت تمضي اليـــه •• بنفس الكثافة •• بنفس الفوضى والاهتيـــاج •

في رعبهما اكتشفا أن بين أسماك « السيجان » بعض أنواع من سمك « أبو منقار » و « اللوت » و « الشفش » ، ورأيا وطواط البحر يدف بجناحيه ويرعش ذيله •

في غمرة مقاومته ماكان يدري أن الضغطات الثقيلة على أصابع احدى قدميه هي من فعل ممصات أطراف أخطبوط صغير التصق بها • لما درى ارتج وعوى ، لكنـه بسرعة تدارك فأطبق شـفتيه

وانتزع أرجل الأخطبوط وعاد لرفيقته يجرهـا ، ولا يدرى هل يجرها بالفعل أم هي التى تجره ، الا أن السمك أبى عليهما أن يستقيما فى صعودهما اذ اســتمر فى مداهمتهما حتى بطحهما على بطنيهما . الدم المنثال من أنفه تجلط لتندفق دماء أخــرى من نقاط صغيرة على جلده وجلدها . أشــارت اليه أن اتركنى واهرب أنت . بهزة عنيفة من رأسه فهمت أنه ينهرها ويحفزها ويرجوها ألا تستسلم . لكن السميكات الصغيرة بين فخذيهــا وحول ظهرها وبطنها ، اذا ما حركت ذراعيها غزتها الأشواك تحت ابطيها ، وكتفاها مثقلان بما لاتقدر عليه من الغز والألم المميت . هو أيضا مثلها ، ولكنه يتحامل . بمخزونه الشحيح من الهواء لا يستطيع أن يفعل شيئا الا أن يحاول التعامد فى صعوده بها . رأى أغشية رقيقة من جلدها تتهدب بين الأسنان النهمة ، ورأى انبثاقات الدم اذ تذوب فى الماء ، ونزع سميكة دخلت فى أذنه . الدم ينثــال من جـلده وجلدها . لكنـــه يضرب الماء والأسماك ، أما هى فمستسلمة لكفه ، تصعد معه ، أو تحاول ، والدق المكتوم يزلزلهما .

فى لحظة أدرك ان لأسماك السيجان عيونا لاحصر لها . عيون مدورة لامعة ذكية أو بليدة ، لكنها مرعوبة ، مثلهما يطل منها الرعب . تحدق فيهما أو لاتحدق ، شىء لم يفكر فيه ، لكنها بترصيعها للأجسام الفضية تزحــم كتلة الرعب المميت المحيطة برعب آخر . واذ يستميت للصعود لمح قناديل البحر تظهر داخل الفوضى الضاربة من حولهما . ورأى أسماكا تتلوى بين أهدابها داخل الخوذات الشــفافة . لعله تمنى أن يمتلىء المكان بقناديل البحر ، ولعله كان مشغولا بانقاذ حياته . لحظتها انزلقت الذراع المرخية من قبضته وطفا الشعر الطويل عمــوديا فوق الرأس الذى كان جميلا فشوهته الخدوش . ورآها تغوص ، عينــاها

مقفلتان وذراعاها الى الأعلى وسميكات عالقة بطاقتى انفها وبشفتيها • مسرعا انثنى هابطا اليها • لم يبعد السميكات • لم يفكر ولم يقدر • فقط عاود جرها الى الأعلى ، لكنها أصبحت أثقل مما كانت عليه ، توقف وحركة الأسماك ترجه من كل اتجاه • هز صدرها فلم يهتز • ضربها على خديها فلم تستجب • عيناها ظلتا مغلقتين والسميكات بدأت تنهش رموشها • قاء ما فى جوفه عصارات صفراء ذابت من فورها والتقمت الأفواه النهمة بعضها • مع آخر فقاعة هجم الماء على أنفه وفمه ، لكن وهج الحياة ظل متوقدا فى خلاياه بما تبقى فى دمائه من آكسجين • بالفطرة أو بالادراك عاد يجرها وأخذ يزيح الماء ويصعد • دون أن يلتفت الى الأسماك ظل يصعد • عيناه غامتا ، لكنه ظل قابضا على رسغها ويصعد • خيل اليه أنه رأى فيما يشبه الظل شباكا وقطع من رصاص وفلين • رآها تقترب جارفة كتلة الفوضى باتجاه جسديهما • وشعر بتكاثف أسماك السيجان وأبو منقار واللوت والشفش عليهما ، والتصقت أطراف الأخطبوط وأهداب قناديل البحر بأماكن كثيرة من جسميهما فلم يستطع ولم يفكر فى نزعها • ضربات الذيول والزعانف نزعت رسغها من قبضته وفصلت بينهما • جسمها كان قد هدأ تماما وانفتح للماء والأسماك ، أما جسمه فقد ظل ينتفض والشباك تزيد من اطباق الأسماك عليهما • غز سمك أبو منقار عينيه فصرخ أو هكذا بدا من فمه الذى انفتح لتتدفق الأسماك الى جوفه وتغطيهما تماما ، فيما ظلت الشباك تضيق وتعلو ، وما هى الا حركتين وكان كل شىء فوق السطح ، حيث توجد مركبان للصيد يعلوهما عدد من فقراء الصيادين ، بعضهم توقف لتوه عن ضرب الماء ، والبعض الآخر ينهكه شد الشباك ، فيما كان القارب الخفيف الخالى مازال طافيا هناك فى البعيد ، وعلى الشاطىء ظلت بيوت القرية السياحية نائمة كبجعات بيضاء مطوية الأجنحة •

بط البحـيرة

رومانتيكية للسماء والماء وما بينهما

... وفوق المويجات الواهنة ، طفت أوراق البشنين بساطا مترجرجا يعكس فى ومضات سريعة ألوانا حمراء دامية ، بدت لعينى العجوز المحتبية فى السواد نقوشا سحرية يكسوها البلل • ومن حولها اهتزت ذؤابات الحلفاء وشواشى الغاب لنسمات خفية المصدر ، بعدما قطفت أشعة الشمس الطالعة بالكاد عناقيد الندى ، تاركة بعضها لينسال على العيدان النحيلة ، ويعلق بالبراعم ، ويسقط محدثا بقبقات ضعيفة ما تلبث أن تتبلعها دكنة الطحلب •

ومن خلف المراحات ، وجزر الحلفاء والغاب ، وعبر الخلجان المتوهجة بالأحمر والرصـاصى ، زحف طنين البط ثقيـلا وبطيئا وممتدا • وفى الوراء ، حيث النفايات ومرساة القوارب ، تلاصقت بيوتات القرية ، وقد أحالهـا المدى الى وجوه آدمية تبرق عيونها بذبالات مصـابيح الجاز ، فى حين تسلل اليها من شقوق الكوخ شخير أختها العمياء مشلولة الحركة •

وفيما تستدير لتمسك بالجوبيا المعلقة خارج الكوخ ، لمحت عند المرساة شبحا منحنيا ، أطرته الشمس بحمرتها وأحالته الى قطعة فحم معوجة ومحاطة باللهب · خمنت أنه الواد رجب البواردى ، دليل الأفندية الذين يأتون من بعيد ببنادقهم وملابسهم الغريبة ، ليعكروا صفو الماء بلهاثهم وراء بط البحيرة · هكذا خمنت · وخمنت أيضا أنه انما يضع سلالا فى القارب الصغير استعدادا لاستقبال بعضهم · عندئذ نقت دجاجاتها من تحت القفص معلنة عن قدوم عسر لبيضة توقن ، من فرط التعود ، أنها ستخرج ـ بالرغم من صغرها ـ مخضبة بالدم ·

دعت الفتاح العليم ، الرزاق الكريم ، أن يجعل رزق اليوم من السمك وفيرا ، ثم دلت الجوبيا فى الماء وراحت تتابع اتساع الدوائر المنداحة · هبت ريح خفيفة فتلاحمت أوراق البشنين وتحركت السحب قشورا دائرية لتكشف عن لحم السماء الداكن دكنة لحم السمك المملح · اذ ذاك تحرك على خشب المرسى شبحا اثنين من الأفندية · أولهما يضع على رأسه طاقية خواجاتى ، ويرتدى ـ هكذا خمنت ـ سترة جلدية ، فمعظمهم يأتى بسترات جلدية ، والثانى وان بدا كهلا حاسر الرأس ، الا أنه ينتعل حذاء طويلا يكاد يغطى منتصف فخذيه ويحمل بطا حنشيا وشراكا وأحزمة تعلم أنها محشوة بالخراطيش ، ومن كتف كل منهما تدلت بندقية ·

صاح الأول بشىء لم تفهمه ، الا أنها ـ وكانت قد نهضت لتوها الى شباك التحويطة الملفوفة على بعض الأعواد ـ لمحت كومة مظلمة عرفت فيها عربة « بندرية » انطلق من ورائها شبح لفتاة رشيقة تضع فوق رأسها قبعة عريضة وترتدى بنطلونا · تأملت ترجرج نهديها وهى تعبر المرسى ، وذراعيها وهى تسلمهما للواد رجب · ولحظة انحنائها صوب القارب ، عرفت أن ذلك البروز النحيل فوق أحد كتفيها لم يكن الا فوهة بندقية أخرى ·

طرحت الأمر من ذهنها بمصمصة مبتورة ، ولملمت أطراف جلبابها الى قطعة القماش التى تمنطقت بها ، ثم حملت شباكها وغاصت بساقيها العجفاوين فى برودة الماء · وفيما تزيح القواقع المتراكمة تحت قدميها ، لمحت تأرجح « المدرة » فى يد رجب ثم انغراسها فى طين البحيرة ، واذ بدرت من الفتـاة صيحة مكتومة ، أيقنت أن القارب قد بدأ يتحرك ، فانصرفت لعملها وانهمكت فى غرس الأعواد وفرد الشبك ·

حينما عادت الى كوخها وأسدلت ثوبها وتهيأت لاعداد فطورها وفطور كومة اللحم التى تشخر بالداخل ، كان اللون الأخضر الباهت ــ هذا الذى بدأ خيطا نحيلا مرتجفا ــ قد افترش البحيرة ، فيما ضج المكان بأزيز الهوام وبحات البط · لمحت بطة تدف بجناحيها فوق الشواشى وتهبط باتجاه الخلجان وتلمس أوراق البشنين · ظنتها ستحط على الماء · لو حدث ، فان بطا كثيرا سيحط الى جوارها ، وسيسهل على الواد رجب الامساك بما يصيده الأفندية ، وقد يعطيها خلسة واحدة أو اثنتين ، الا أنها علت ومادت وطارت محلقة فى الفضاء ما بين ذؤابات الحلفاء وقرص الشمس ، لتستحيل الى سواد مؤطر بالذهب · لحقت بها أخرى · تواجهتا أمام القرص المصفر ، ثم انحدرتا ــ بانسياب ــ باتجاه الماء ، فاذا بعدد أكبر يحيط بهما · بقدر ما ساعدها بصرها راحت تعد ·· واحدة ·· اثنتان ·· ثلاث ·· خمس ·· حفت احداها بالقارب المتأرجح فوق ظله المقلوب فيما مرقت أخرى من أسفل الحبل الذى يربطه الى أجمة بوص وارتفعت فوق « اللبدة » التى يختفون بداخلها ثم حلقت وذابت فى الفضاء ، فأيقنت أنهم هواة لا أكثر ·

واذ تمد يدها ، من خلال النافذة المفتوحة ، الى « مشنة » العيش ثم الى صفيحة السمك المملح ، ثقب الهواء صوت صفير عرفت منه أن صائدى البط سيبدأون ·

نظرت فرأت رأس الواد رجب مختفية وسط الحلفاء وقد اندست الصفارة القصيرة بين شفتيه ، فيما طفت البطات الخشبية صماء بكماء . تعرف جيدا أنها صماء بكماء ، فقد هرولت وخاضت فى الماء ذات مرة وأطبقت على رقبة واحدة منها ليقهقه المغموص رجب « يا خالة .. يا خالة هذه خيالات .. خيالات والله يا خـالة .. خيالات » ، وفيما تمـد يدها الى القفص المعلق لتلتقط حبتى طماطم وبصلة ، لمحت رأسا الفتاة والشاب ذى الطاقية تتسللان عبر آجام الغاب والحلفاء باتجاه الناحية المكشـــوفة التى تقابلها من المراحة وتخفيهما عن الآخرين . لم تهتم وبدأت بقطع حبتى الطماطم ، الا أنها شهقت وتسمرت تماما .

الرأسان تواجهتا . شعر البنت تطيره نسائم الخريف ورأس الولد أعلى من رأس البنت . لذا هو مائل نحوها وهى متطلعة اليه . فجأة التصقا . دعكت عينيها وبســـطت كفها فوقهما ، لتحد من بصرها ، فرأت ما سبق أن رأته . كانا قد التصقا تماما . التصقا وتماوجا وانضغط بينهما الضوء ، ثم انحدرا الى الأرض واستحالا وسط الهيش الى كتلة واحدة دودية الحركة .

صاح الرجل حاسر الرأس بشىء لم تفهمه ، الا أنها من نهوضهما السريع ولجوئهما الى بندقيتهما عرفت أنه انما يصدر أمرا بالاستعداد للضرب .

من فورها لمحت أسراب البط وقد ظهرت دفعة واحدة فوق الجزر الأكثر قربا . كل منها على هيئة رأس سهم ينزلق فى خط منحن رشيق صـــوب الماء . وكانت الشمس قد صعدت قليلا فى السماء وأخذ لونها فى الابيضاض فانعكس لألاؤها على التشكيلات التى تشق طريقها فى نعومة مادة أعناقها فى استقامة وفاردة أجنحتها فى ثبات حتى لكأنها لا تطير .

فجاة ، دوت طلقة فجمدت السكين فى قلب البصلة • انهم حتى لم ينتظروا أن تحط بين الخيالات • « اشرح لهم يا رجب وعلمهم ان الصيد بالخيالات أسهل » • تأرجحت فى الهواء لحظة صمت ما لبثت أن هوت لتعصف بالمكان زوابع البط المتعثر فى خوفه وتناثرت أعداده فى طيران ملتو ما بين صعود وهبوط وارتداد • تزعق وقد مدت أعناقها وكأنها السهام المنطلقة • الصرخات النائحة تفور وتصاعد الى السماء ليرجعها الصدى مضطربة رنانة ، فيما مادت أعواد الغاب وتمزق بساط البشنين وصاحت الدجاجات وجاوبتها أفراخ الغاب مولولة فزعة •

ميزت أسراب الشرشير والحمراى والبلبول بمناقيرها الفطساء ورؤوسها الزرقاء وريشـــها المرقط بالأبيض والأسود والبنى • وها هو الأوز العراقى يتلاطم أمام عينيها ويدق ويندفع بأعناقه الطويلة الى الأعالى • رأت واحدة أصيبت فراحت تترنح وتدور حول نفسها وقد أخذ جناحاها يخفقان بقوة وعنف ثم توقفت للحظة هوت بعدها فوق أعواد الغاب كومة من ريش ، ليجرى نحوها رجب ممسكا بذيل جلبابه بين أسنانه ، ويعود الى الرجل حاسر الرأس ملوحا بها بظفر أجج الحماسة فيهم ، فتوالت الطلقات وتتابعت أسراب البط المذعور حتى ظللت الكوخ وأحاطته ، فى طيرانها المتوال ، من كل جـــوانبه •

امتلأ ناظرى العجوز بلمعة الريش البنى وأغشـــية الأرجل البرتقالية المشوبة بسواد يشف أو يتكاثف ، فيما ظل رجب يعدو ، بنزق البواردية ، يمنة ويسرة ، ويعود ــ وقد تملكه الانفعال ــ ملوحا بالبطات الساكنة بين أصابعه • فى احدى المرات ، وثبت الى الماء بجلبابه وخرج بائنتين • فى وثبته الثانية ، انفجرت زوبعة من الخضير وأفراخ الغاب •

كان فرحا ومنتشيا ، هذا ما عرفته من صيحاته المتتالية ودفعه السريع للقارب ووثوبه الية . ها هو يجمع البطات ويلقى بها فى قاع القارب . وها هى الفراغات الفاصلة بين سحابات البط المولول قد بدأت تتسع لتبرقشها بصقات البنادق وتتداوم فيها نتف الريش بينما أخذت نوافير الماء القصيرة المتناثرة على سطح البحيرة تتزايد بتزايد الأجسام المساقطة كالقنابل . طربت وهى ترى انبثاق النوافير من داخل التحويطة « ثلاث .. خمس .. ست .. سبع .. يبى .. عشر » . وها هى البطات ما تزال تساقط داخل التحويطة كتلا سمراء غامضة . والأسماك من فرط الارتطام تصاعد فوق نوافير الماء لتسبح فى الهواء فضية لامعة وتعاود السقوط .. « رجب سيتركها لى ، حتما سيتركهـــا لى » . وتراجعت . « هم محترفون ، نعم محترفون ، محترفون أو هو الحظ والرزق » .

من الناحية المقابلة ، من وراء الحلفاء ، رأت أمواجا سوداء تندفق باتجاه المراحات . لعلها لا تعرف المصير ولا تفهم معنى الفوضى الضاربة أمامها . من سواد الريش والمناقير الرفيعة القصيرة عرفت أنها طيور الغر . اصطدمت بدوى الخراطيش فمادت برشـــاقة وانحرفت فى طوابير طويلة مندفعة للأعالى صوب الشمس . فجأة ند عن سقف الكوخ صوت مكتوم . نظرت فاذا هى بطة سقطت لتوها وتدلت من رجليها المحشورتين بين أعواد البوص ، بينما راح عنقها الطويل المهدل يتأرجح أسفل كتلة الريش الساكنة ، وقد أخذ الدم القانى يتساقط من المنقار المحطم فى قطرات كبيرة تجمعت بالقرب من قدميها . نادت أختها من النافذة ، علها تستيقظ وتسمع عن الخير الذى أرسله الله . « الله لا يريد أن ننتظر حتى نأتى بها فى التحويطة » .

اعتلت صندوقا وهمت بأن تمسك بالبطة من منقارها الا أن صيحة ظفر مفاجئة أدارتها .

كانت الفتاة قد طارت نشوانة فى الهواء وهبطت قابضة على عنق واحدة تدف بجناحيها · تتالت وثباتها الفرحة وازدادت ارتفاعا ثم ارتمت على ذى الطاقية وأسقطته أرضا وتمرغت واياه أسفل أعواد الغاب فثارت سحابات خفيفة من التراب كادت تخفى عن ناظرى العجوز حركة الأجنحة الفزعة ·

عندئذ ، وكانت حدة الطلقات قد خفت ، لمحت رأس الرجل النحيل يعلو فوق هامات الحلفاء متحركا ومستديرا لأكثر من ناحية ثم توقفت وصوب بندقيته ناحية سحابة الغبار ·

صاحت الفتاة بقوة فوثب ذو الطاقية وأطاح ببندقية حاسر الرأس ، الا أن الأخير صوب لكمة الى فكه واتبعها بأخرى فى بطنه فسقط الشاب لينهض ممسكا ببندقيته ويهوى بها على رأس الكهل · تفاداها ، فهجمت عليه الفتاة وكبلت قبضتيه خلف ظهره ليندفع الشاب نحوه ويدفع بقدمه فى بطنه عدة مرات ·

غرز الواد رجب « المدرة » فى قلب الطين وقفز من مقدمة القارب مخلفا وراءه الخيـــالات والجثث الطافية ، ليهرول نحوهم « بعبه » المحشو بالبط · واذ يدفع الشاب بعيدا ويخلص الشيخ هوت عليه ضربة من مؤخرة بندقية الشاب ترنح لها · تلقى الثانية على ساعده ، لكنه تحامل · حمى وجهه ثم وثب الى الفتاة · سحب منها بوصة ، كانت قد انتزعتها ، وأخذت تضرب بها الشيخ ، الذى انحنى من فوره الى بندقيته ورفعها فى اتجاهها ·

واذ يثب رجب نحوه ليمنعه ، نطلق الخرطوش وردد الفضاء ، الذى ســـكن ، صرخة ألم مجنونة ·· ثم طفا رجب فوق أوراق البشنين ، فيما دفع التيار بالخيالات وجثث البط اليه · هنا فقط اندفعت العجوز تصرخ مولولة واستيقظت أختها ·

هذه الحكايات عن البحر

محمد جبريل

هذه المجموعة تتضمن قصصا – أو حكايات – عن البحر . انها تنطلق اليه ، وتعود منه . تحيا فى مراكبه ، وعلى سواحله ، وداخل الأكشاك المتناثرة فى امتداد الشاطىء ، وتركب أمواجه ، وتعمل بالصيد ، وبالتجارة لراكبى وبحارة السفن الأجنبية . بل ان الكاتب – فى تصديره للمجموعة – يتجه الى قارئه بأنه أينما ، ووقتما ، وكيفما ، ولى وجهه شطر البحر ، فلابد أن يعتمد على حكاية .

ثمة فى قصص المجموعة أسماء شوارع محمد على والاشكاربيه والسلطان حسين وأوجينى وكتشنر وفؤاد الأول والشارع التجارى ، وعزبة النحاس والمحطة العسكرية ومقاهى البسفور والداودى وبيت عثمان غندر ومعبد موشيه هيل وبار سيسل وكازينو سبلندد والفنار والمراكب العابرة والمعدية ومدرسة البيون باستير وجنينة فريال . كما تطالعنا مسميات البمبوطية

وعمال الكنال وصيادى النابورطال وعساكر السواحل والفلايك والقزق وعربجية الحناطير وعســاكر الانجليز والعطشــجية ٠٠ بانوراما متكاملة ، غنية بالتفصــيلات الدقيقة والمنمنمات ٠ تهبنا البحر سيدا مسيطرا ، له حضوره القوى الغلاب ٠

قاسم مسعد عليوة يحب البحر ، ويحب مدينته بور سعيد التى تطل على البحر ٠ فى ضوء ذلك الحب جاء اهداؤه الى روح أبيه الراحل الذى أورثه -- على حد تعبيره -- حبين : حب البحر ، وحب بسطاء الناس ٠ والبحر فى قصص هذه المجموعة ليس مطلقا ٠ انه بحر بور سعيد تحديدا ، بالاضافة الى الشخصيات التى تحيا فوق أمواجه ، وعلى شاطئه ، وبالقرب منه ٠ هناك الحرفيون وصغار التجار والبمبوطية وعمال البحر وصناع السفن والصيادون وتلاميذ المدارس والذين بلا عمل وسكان العشش ٠ أبطال القصص جميعا يتجهون الى البحر ٠ المنطلق لحظات متباينة : الوقوف على ساحله ، العوم فى مياهه ، ركوب أمواجه ، الصيد ، الفرار من المشكلات الشخصية والملل ، اللعب على الشاطىء ، ممارسة علاقات الحب ، تهريب الأسماك والمخدرات ، الخ ٠٠ بل ان تعميد الصداقة يتم بالاتجاه الى البحر ، والغوص تحت أمواجه ٠ وربما سعت الزوجة الفقيرة الى البحر -- الكل يتجه اليه ! -- تجمع السمك الصــغير المتبقى من الشباك ، وتبيعه ، لتساعد زوجها -- من دون علمه -- على أعباء الحياة ٠٠

ثمة مبدعون يقدمون المكان فى مسمياته المختلفة ، كالشارع والميدان والشقة والحديقة والمقهى وغيرهــا ٠ لا يبين المكان عن خصوصيته ، ولا عن تميز ملامحه وقسماته ٠ يتصورون فى مجرد مازال طافيا هناك فى البعيد ، وعلى الشاطىء ظلت بيوت القريه المجموعة ليس مطلقا ، ليس مجرد أسماء وعناوين ، لكن الفنان

يعنى بكل ما يجسد خصوصية المكان : منمنماته ، ورائحته . أنت لا تلتقى بمكان غائب الملامح ، ولا هو ينتسب الى أى مدينة ساحلية ، ولا أى بشر . لكنه ـ بالتحديد ـ مدينة بور سعيد ، والبحر الذى يكتسب خصوصيته من حركة الحياة على شاطئه ، وفوق مياهه . وبور سعيد التى تطالعنا فى هذه القصص ، تنقسم الى عالمين منفصلين تماما : الحى الافرنجى ، والحى العربى ، أو حى المناخ . ولم يكن بوسع أبناء الحى العربى أن يخترقوا شـوارع الحى الافرنجى الا من نقاط مرور محددة ، حتى لو كان اتجاههم الى البحر . لم يكن مسموحا لأحد ، حتى تلاميذ المدارس والأطفال بعبور الحى العربى الى الحى الافرنجى الا من شـارع محدد ، هو الاشكاربيه ، يقفون أمام البوابة ليبرزوا أوراقهم . من لا يملك أوراقا يضع الجندى الانجليزى ختما على ظهر كفه . الصيحة : مركب بساجيرى ، تعنى هرولة مئات الأقدام نحو الميناء . يتصادم أصـحابها ، ويسقطون باللهفة من الدراجات ، وتسقط فوقهم ، أو أسفلهم ، الصوانى وسلال الخوص وتماثيل العاج والكراسى الجملى ، يتشـاتمون ويصرخون ، لكنهم دائما يمضون مسرعين . يقول الراوى : « .. فكل شىء عرفته حاراتنا كان يأتى من معاملاتنا مع هذه المراكب . ولأنها تأتى من البحر ، فالعادة أن نقول من البحر . فان شربت شايا فى مقهى المعلم جابر ودخل دماغك ، وسألته عن مصـدره ، أجاب : من البحر ، وان تحسست بوية أدخلت رونقا على كراكيب عبده فليفل ، بادرك قبل أن تسأل : من البحر . وان رأيت الكابتن سـعد نويصر يتبختر بالبنطلون الدنجريه والكاسكتة الاجريجى ، فمن غير سؤال تعرف أنهما من البحر . وخراطيش السجائر التجارى والبرانيط الرومانى والبلاطى الانجليزى وقزايز الريحة الفرنساوى كلها من البحـر . والساعة فى رسغ الست عديلة روسكوف صحيح ، لكن يكفى أنها جاءت من البحر . حتى حبال الغسيل فى بيت أم عبده ، والتبتة قدام باب

الشيخ رمضان · وجركن الميه فى محل فاروق الجزماتى ·· كلها جاءت من البحر » ··

البحر – كمـا ترى – ليس الساحل ولا الشاطىء فحسب ، لكنه المياه الممتدة الى نهاية الأفق ، وهو الفلايك والسفن الضخمة وعمليــات الصيد والغوص ، وهو ما جسده الفنان فى حكاية « بالقرب من القرية السياحية » · لوحة بانورامية للحياة فى قاع البحر ، رسمتها ريشة فنان يجيد الالتقاط ، وتجسيد التكوينات والألوان والظلال · ومما ينتسب الى الموروث ، حكاية الترسة التى ناشدت الولد بأن يقنع أباه بألا يذبحها ، ولأن الأب أصر على ذبح الترسة ، فقد مات فى الليلة نفسها (حكايات عن البحر والولد الفقير) ، ومما ينتسب الى الموروث أيضا القاء خلاص المولود فى البحر ، عند الغميق ، درءا للأعين الحاسدة ، زنثارات أخرى تعمق من تكامل اللوحة ··

***

ان معظم قصص المجموعة على لسان الراوى ، وهو – فى الأغلب – طفل يستعيد ذكريات طفولته · واذا كانت القصة القصيرة ترسم شخصياتها بضربات فرشـــاة سريعة ، فان الرواية تعنى بالتفصيلات ، وبتجسيد الملامح الظاهرة والجوانية للشخصية · وشخصيات قاسم عليوة تنتمى الى ذلك النوع الأخير · انهم أبطال روائيون بكل ما تتسم به شخصية البطل الروائى من اتساع فى أبعادها ، وحسب التعريف النقدى ، فان الرواية تصور العالم من خلال مجموعة كبيرة من الأحداث غير المتجانسة · أما القصـــة القصيرة فهى تعرض للحياة من خلال واقعة مكثفة الايقاع ·· لكن قاسم عليوة أجاد تضفير تلك الشخصيات التى أحسن تجسيدها فى لوحات ، تنبض بالحياة ، وتشى بالعديد من الدلالات · أهمل

الكاتب تنامى الحدث ، بل انه أهمل الحبكة التى تعد – فى المواضعات النقدية – خاصية أهم فى القصة القصيرة ، واستطرد فى رصد الملامح الظاهرة للشخصية ، أو تحليل البواعث النفسية لتصرفاتها ، أو تأمل تشابك العلاقات الانسانية ٠

لقد خاض عجوز همنجواى عراكا ضاريا ضد أسماك القرش ٠ أما شخصيات قاسم عليوة فقد خاضت صراعها ضد الوجود الاحتلالى ، وقسوة الظروف المعيشية ، والاحباط ٠ واذا كان العجوز لونستو قد توعد بأن يعود اليه ، فان أبطال هذه المجموعة لم ينتزعوا الاصرار ، ولا أعلنوا التوعد ، لأن حياتهم تأطرت بما كان عليهم أن يحلقوا أفضل الظروف للحياة فى داخله ٠٠

ان القسوة التى تعاركهم بها الحياة لا تحجب – أو أنها تبين عن – الاصرار الذى يخوضون به ذلك العراك ٠ البساطة تسم تصرفاتهم وأقوالهم ، لكن الارادة قائمة هناك ٠ وربما الحب فى ذاته شاغل الأولاد ، أما البنات ، فان حلم التطلع الى مجاوزة الوضع الاجتماعى المأزوم هو المحرك لتصرفاتهن ٠ الاستثناء عن المستوى الأدنى لشخصيات المجموعة ، مثلته نورهان (فوق اللسان الصخرى) التى رآها الصياد الشاب – للمرة الأولى – وهى تجلس على صخرة مطلة على البحر ، وبيدها ديوان من الشعر ، والشبان الثلاثة الذين نطق الثراء فى ملامحهم وتصرفاتهم ٠ انقذها من مضايقتهم الشاب الصياد محمد ، ثم نشأت علاقة بينهما ٠ علمها الصيد وأسماء السمك ، وعلمته قراءة الشعر ، فى حين نصحت أم محمد ولدها « لا هى من ثوبنا ، ولا نحن من ثوبها » ٠ أما والد نورهان فقد أصدر قرارا حاسما « لا ترينه يا نورهان ولا يراك » ٠ وتظل العلاقة على تواصلها

وثباتها حتى يواجه الشـاب والفتاة ما لم يكونا يتوقعانه · تكرار لحكاية البنت الثرية والشباب الفقير التى تصل ـ دوما ـ الى مرفأ النهاية السعيدة · لكن حكاية قاسم عليوة تتميز بالصدق العفوى الذى وسم كل لوحاته ، أو حكاياته ، وبالنهاية القاسية التى واجهتها حكاية الحب الوليدة · مثل الاستثناء كذلك هذان الغواصان ـ رجل وامرأة ـ غابا فى عمق البحر ، بعيدا عن المدينة ومشكلاتها وطموحاتها ··

أما أبطال « حكايات عن البحر والولد الفقير » فهم يعملون فى مهن صغيرة : صبى فى دكان فحومات ، وجرسون فى مطعم ، وشيال الخ ·· يتكلمون ، ويتصرفون ، كأنهم ارتضـوا هذه الحياة ، لكن التطلع الى مجاوزة الواقع يبين فى تصرف عفوى ، أو فى عبارة لم يحسن تدبرها · ويحـكم الواقع حصـاره : فيموت فوزى بالسل ، وتعانى عفاف فى البحث عمن يضمن لها المستقبل الأفضل ، ويظل الراوى حائرا لا يقوى على فعل شىء · وكعادة التجمعات الفقيرة فانهم يواجهون قسوة الحياة بالتكافل · من يعانى يقدم له الجيران ما يستطيعون تقديمه ، والوضع يتغير فى مناسبات تاليـــة ··

وأما « خبطـــة رأس » فهى تذكرنا بجحيم باربوس ، وان اختلف جحيم قاسم عليوة فى أن توقد مشاعره الجنسية كان مبعثه فراق زوجته ، فهو يعاود النظر من ثقب الكوخ ، ويطيله ، الى دورة المياه المقابلة التى تتردد عليها النساء ، بعكس بطل جحيم باربوس الذى لم يكن يعانى أزمة جنســـية حقيقية بقدر ما كان دافعه الفضول للتعرف الى حياة الآخرين وهم يتصورون أن أحدا لا يراها · تصرف بطل « الجحيم » أملاه الفضول للتعرف الى ما وراء الجدران · أما تصرف بطل قاسم عليوة فقد أملتـــه

الحاجة الى الجنس بتأثير افتقاده للزوجة التى انقلب على جنبه ، ومد يده متحسسا ، حيث كانت تنام ، فلم يجـــدها « أحس بجسمه كله يرتعش ، فاقتطه الفراش ، وقد ترسخ فى ذهنه أن لحمها أبيض مهما كان ، أبيض ودافىء » ··

وبالطبع ، فان غرق السفن التجارية الكبيرة كان يعنى عند أبناء حى المناخ فرصة الحصول على ما لايتذوقه المرء الا فى تلك المناسبات ، وعلى حد تعبير الراوى فانها تمثل بالنسبة لهم كنزاً يفوق كنوز مغارة على بابا ومراكب السندباد ··

ولأن أحداث القصص تدور فى زمن الاحتلال الانجليزى · وهو الذى كان يشهد وجوداً واضحا ، ليس للوجود الاحتـــلالى فحسب ، وانما للوجود الأجنبى بعامة ، فان ذلك الوجود يبين عن نفسه فى الجاليات التى كانت تقاسم أبناء بورسعيد أيامهـــم ، وان تميزت بالاقامة فى حى الافرنج ، وفى المفردات الانجليزية والفرنسية والأسبانية وغيرها ·

ولعل أميز ما فى المجموعة هو الحس الوطنى الذى يحـرك شخصياتها الرئيسة والثانوية ــ كان زمن احتلال ! ــ وهو حس يبين عن قســماته فى تصرفات وأقوال ، تتسم بالعفوية ، وترفض الجهارة والمباشرة ، فهى أقرب الى الومضة الفلاشية ، أو الايماءة التى تشى بدلالة · لقد ظل أثر الشظية التى خلفها اقتحام الكابتن نصير معسكر الانجليز مع اثنين من زملائه ·· ظـــل هذا الأثر باقيا فى رأسه ، دليلا على اسهامه الايجابى فى مقاومة الاحتلال · وكان حنفى يختطف كاميرات السياح اذا ما شرعوا فى تصوير باعة البطاطا والشحاذين ، لا يأبه باحتجاجاتهم وحركات أيديهم العشوائية · بل انه كان يدخل فى معارك مع أولاد البلد الذين

يطاردون السياح والبساجرين ، أو يحاصرونهم أمام المحلات ، وعند نزولهم من الحناطير • حتى عم زرمبــة الذى يشغله قوت يومه ، يحـاول النجاة بالشبان الذين يقلهم فى حنطوره من أذى جنود الانجليز • ألقى عليهم ملاءة وهو يهمس : « انجليز •• اتغطوا واستخبوا » ، وحول اتجاه الحصان • حتى الأطفال كانوا ـ اذا اقتربوا من تمثال ديلسبس ـ بصقوا ـ بتلقائية ـ ناحيته ••

انهم ينتمون الى الطبقة الدنيا المهمشة ، التى يعانى أبناؤها هم الوجبة التالية • لكنهم يمارسون الفعل الوطنى بالبسـاطة نفسها التى يمارسون بها كل أمور حياتهم • الظروف القاسـية التى يحيون فيها هى مسئوليـة مجتمعية ، مسئوليـة الدولة والمجتمع كله ، وعلى الآخرين ـ من ثم ـ ألا يتاجروا بتلك الظروف لغير صالح هؤلاء النـاس • انهـم ليسوا أصـدقاء للوطن ، ولا متعاطفين مع الذين يعانون قسوة الأوضاع فيه ••

وعمـــوما ، فأنت لا تستطيع أن تنسى شـخصيات حنفى وفوزى وعم زرمبـة وعفاف والكابتن نويصر والسـيد سـبرتو ومنال حمادة ـ ذلك البطل الملحمى ـ والصاغ رضوان وفطوم وعم حسن السقا • انهم تعبير عن المواطن المصرى البسيط الذى يبذل التضحية دون أن يجد فى ذلك ما يثير التأمـل أو الاعتزاز بما فعـــل ؟ لقد أقدم على التصرف المطلوب لأن ذلك ينبغى أن يكون كذلك ••

★★★

أتصور أن تسمية الكاتب لمجموعته بأنهـــا حكايات ، هى تسمية صحيحة ، لأنها تناقض التحديد العلمى الصارم لخصائص القصة القصيرة • ثمة تداخل فى الأجناس الأدبيــة ، يفيد كل

جنس من الأجناس الأخرى ، يتأثر بها ، ويؤثر فيها ، لكن يظل لكل جنس اطاره الذى ينبغى النظر اليه من خلاله • ولعلى أوافق انريكى أندرسون امبرت على أنه ليس من الحكمة القول بأن هناك نوعا أدبيا أصعب من الآخـــر • ذلك لأن الصعوبات تختلف من كاتب • ولاشك أن اقبال محمود البـــدوى على كتابة القصـة القصيرة يساوى اقبال نجيب محفوظ على السرد الروائى • وميل باكثير لكتابة المسرحية يتفوق على ميله لكتابة الراوية ، فضلا عن القصة القصيرة التى لم يحاول ابداعها ••

التكثيف بعد مهم فى القصة القصيرة • ومع أن قاسم عليوة يهمل هذا البعد بصورة لافتة ، فان قصص المجموعة تضع القارىء فى لحظات من الفن الجميل ، يتشابك فيها فن القصة والسيرة الذاتية وتيار الوعى وتداعى الذكريات • لقد صدر لقاسم عليوة العـــديد من المجموعات القصصية • مـع ذلك فان قصص هذه المجموعة ـ كما أشرت ـ تبين عن موهبة روائية متميزة ، من حيث اجادة الحكى ، وفنية السرد ، والحرص على التفصيلات الكلية والهامشيات التى تهبنا ـ فى النهاية ـ بانوراما متكاملة للحياة فى البحر وما يتصل بها •

السرد تحدثى ، يعتمد الفصحى ، وان طعمه الكاتب بمفردات عامية وفصحى تتداولها الألسنة ، لا تنبو عن السياق • تذكرنا بلغة يحيى حقى وحســين فوزى ، التى أجادت تضفير مفردات العامية فى نسيج الفصحى • ولنقرأ هذه الفقرة : « هاج وماج وأزبد وعايرها بقلة أصلها ، وبدقات النقص التى تعملها معه ، هو الذى أضاع عمره وحرق أيامه لأجل أن تكون ست محترمة ، والمناكفة عنده مزة ، فعايرته بانهداد حيله وزناخة مخه ، وقلة بختها معه ، وأنهـا تستاهل ما شـافته منه ، لأنها رضيت بالهم

والهم لم يرض بها ، وأنها وجيدة على سن ورمح بنت الشمندورى أرجل بمبوطى فى الميناء ، الذى لو عاش لعلمه الأدب هو ومن يتشدد له ، لكنه الزمن الذى جعل الأنذال مثله يتحكمون فيها الخ ٠٠ » (خبطة رأس) ٠

وقد مثل ثبت غريب اللفظ الذى أورده قاسم عليوة فى نهاية بعض القصص اضاءة مطلوبة للمفردات والمسميات التى ربما تغمض عن ذهن القارىء ٠ تذكرت المشكلة التى واجهتها شخصيا فى أجزاء « رباعية بحرى » لما بدت مسميات بيئة البحر مشكلة حاولت التغلب عليها دون ايراد معانيها فى هوامش ، لكن المعانى ظلت مستغلقة أحيانا ، ونابية عن السياق ٠ وثمة خطأ يقع فيه عدد كبير من الأدباء حين يكتبون « الآذان » بالألف الممدودة ، والصحيح هو الأذان بالهمزة فوق الألف ٠ ولعل الكلمة الصحيحة للصحبجية هى « الصهبجية » وهم من يقيمون الأفراح والسهرات السعيدة ٠ وأظن أن « الخلول » هى أم الخلول ، أكلتنا الساحلية الشهيرة ٠

★★★

هذه ـ كما قال قاسم مسعد عليوة فى تقديمه ـ حكايات عن البحر ، وهى حكايات منتزعة من صميم الحياة فى البحر ، وفى الأحياء الوطنية ، ومن الواقع الذى يعانى قسوته أبناء تلك الأحياء ، وان حرصوا على اللحظة المعاشة ، وعلى التمسك بالاصرار والأمل ٠

مصر الجديدة ـ محمد جبريل
فى ٢٠٠٠/١٢/٨

للمـــؤلف

الشودتان للحرب :

مسرحيتـــان	أدب الجماهير	**١٩٧٢**

الضحـــك :

قصص قصيرة	**مواقف أدبية « ماستر »**	**١٩٨١**

تنويعـات بحرية :

قصص قصيرة	**مواقف أدبية « ماستر »**	**١٩٨٢**

صـــخرة التامل :

قصص قصيرة	**المستقبل للطباعة والنشر**	**١٩٨٩**

حدود الاستطاعة :

قصص قصيرة	**المستقبل للطباعة والنشر**	**١٩٨٩**

غـير المـألوف :

قصص قصيرة	**الهيئة العامة لقصور الثقافة « ط ١ »**	**١٩٩٥**

خبرات انثوية :

قصص قصيرة	مركز الحضارة العربية	١٩٩٨

لا تبحثوا عن عنوان :
انها الحرب ٠٠ انهـا الحرب

قصص قصيرة	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٩

غـير المألوف :

قصص قصيرة	المستقبل للطباعة والنشر « ط ٢ »	١٩٩٩

وتر مشدود :

قصص قصيرة	مركز الحضارة العربية	١٩٩٩

الفهــــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www.egyptianbook.org
E-mail:info@egyptianbook.org